

## سورة الرعد

هي مدنية وآياتها ثلاث وأربعون ، نزلت بعد سورة محمد ، ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه سبحانه أجل في السورة السابقة الآيات السماوية والأرضية في قوله « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » ثم فصلها هنا أتم تفصيل في مواضع منها .

(٢) إنه أشار في سورة يوسف إلى أدلة التوحيد بقوله « أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ؟ » ثم فصل الأدلة هنا بإسهاب لم يذكر في سالفها .

(٣) إنه ذكر في كلتا السورتين أخبار الماضين مع رسلهم ، وأنهم لاقوا منهم ما لاقوا وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وكتب الخزي على الكافرين والنصر لرسوله والمؤمنين ، وفي ذلك تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وثبیت لقلبه .

(٤) جاء في آخر السورة السابقة وصف القرآن بقوله : « مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » وفي أول هذه وهو قوله « تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ  
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١)

## الإيضاح

(المر) قلنا فيما سلف إن هذه الحروف في أوائل السور حروف تنبيه كالأ ونحوها ، وتقرأ بأسمائها ساكنة فيقال «ألف لام ، ميم ، را» ؛ كما قلنا إن كل سورة بدأت بهذه الحروف ففيها انتصار للقرآن وتبيين أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه .

(تلك آيات الكتاب) أى آيات هذه السورة آيات القرآن البالغ حد الكمال المستغنى عن الوصف بين الكتب السماوية الجدير بأن يختص باسم «الكتاب» .

(والذى أنزل إليك من ربك الحق) أى وكل القرآن الذى أنزله إليك ربك حق لا شك فيه ، وهذا كالأجمال بعد التفصيل لما تقدم من وصف السورة بالكمال فكأنه سبحانه بعد أن أثبت لهذه السورة الرفعة والكمال عمم هذا الحكم فأثبتته للقرآن جميعه فلا تختص به سورة دون أخرى .

وهذا الأسلوب جار على سنن العرب في مخاطبتهم فقد قالت فاطمة الأعمرية وقد سئلت عن بنيتها، أى بئيك أفضل؟ (ربيعة، بل عمارة، بل قيس، بل أنس، شكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها) فبعد أن أثبتت الفضل لكل منهم على سبيل التعيين ، أجمت القول وأثبتت لهم الفضل جميعا .

(ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أى ولكن أكثر الناس لا يصدقون بما أنزل عليك من ربك ، ولا يقرون بهذا القرآن وما فيه من بديع الأمثال والحكم والأحكام التى تناسب مختلف العصور والأزمان ، والتي لو سار الناس على سننها لسعدوا فى الدنيا والآخرة ؛ وقد سلك المسلمون سبيلها فى عصورهم الأولى فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، وامتلكوا أكثر المنور فى ذلك الحين وثلوا عزوش كسرى والروم ودانت لهم الرقاب ، وساسوا الملك سياسة شهد لهم أعداؤهم

بأنها كانت سياسة عدل ورفق ، وأخذ على يد الظالم لإينصاف المظلوم ، فله دين رقع من قدر أهله حتى أوصلهم إلى السماكين ؛ ولكن خلف من بعدهم خلف أضاعوا معالم دينهم وألقوه وراءهم ظهريا لحاق بهم ما كانوا يكسبون ، وصاروا أذلة بعد أن كانوا أعزة ، ومستعبدين بعد أن كانوا سادة ، تابعين بعد أن كانوا متبوعين « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » والآية بمعنى قوله « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » .

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ،  
 وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ  
 الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ  
 وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ،  
 يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي  
 الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ  
 وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ ، إِنَّ  
 فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) .

### شرح المفردات

العمد: السوارى واحدها عمود كآدم وأديم، والتسخير: التذليل والطاعة، والتدبير: التصريف للأمر على وجه الحكمة ، والتفصيل : التبيين ، والآيات: هي الأدلة التي تقدم ذكرها من الشمس والقمر ، واليقين : العلم الثابت الذى لا شك فيه ، والمد : البسط ، والرواسي: الثوابت المستقرة التي لا تتحرك ولا تنتقل واحدها راسية ، والأنهار

واحداهنهر: وهو الجرى الواسع من الماء ، زوجين اثنين : أى ذكر وأُنثى ، والعرب تسمى الاثنين زوجين والواحد من الذكور زوجاً لأُنثاه ، والأُنثى زوجاً وزوجة لذكورها ، يغشى يغطى ، قطع: أى بقاع مختلفة ، متجاورات: أى متقاربات ، جنات أى بساتين ، صنوان: هى النخلات يجمعها أصل واحد وتنشعب فروعها واحداه صنو وفى الحديث «عم الرجل صنو أبيه» والأكل (بضم تين وبسكين الثانى): ما يؤكل فالمراد به هذا التمر والحب .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية السالفة أن أكثر الناس لا يؤمنون ، أعقبه بذكر البراهين على التوحيد والمعاد فاستدل بأحوال السموات وأحوال الشمس والقمر وأحوال الأرض جبالها وأنهارها وأزهارها ونجيلها وأعشابها واختلاف ثمراتها وتنوع غلاتها على وجود الإله القادر القاهر الذى بيده الخلق والأمر ، وبيده الضر والنفع ، وبيده الإحياء والإماتة ، وهو على كل شىء قدير .

### الإيضاح

ذكر سبحانه أدلة على وجوده ووحدانيته وقدرته ، بعضها سماوى وبعضها أرضى ، وذكر من الأولى جملة أمور :

(١) (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها) أى إنه تعالى خلق السموات مرفوعات عن الأرض بغير عمد بل بأمره واستخيره ، على أبعاد لا يدرك مداها ، وأنتم ترونها كذلك بلا عمد من تحتها تسندها ، ولا علاقة من فوقها تمسكها ، وقد تقدم هذا بإيضاح فى سورة البقرة .

(٢) (ثم استوى على العرش) أى ثم استوى على عرشه الذى جعله مركز هذا التدبير العظيم استواء يليق بعظمته وجلاله يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من

النظام وإرادته وحكمته من إحكام وإتقان ، وقد سبق تفصيل هذا في سورتي الأعراف ويونس .

(٣) (وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى) أى وذلل الشمس والقمر وجعلهما طائعين لما أريد منهما لمنافع خلقه ، فكل منهما يسير في منازله لوقت معين ؛ فالشمس تقطع فلكتها في سنة ، والقمر في شهر لا يختلف جرى كل منهما عن النظام الذى قدر له ، وإليه الإشارة بقوله « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » وقوله « وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ » وإيضاح هذا ذكر في سورتي يونس وهود ، وبعد أن ذكر هذه الدلائل قال :

( يدبر الأمر ) أى إنه تعالى يتصرف فى ملكه على أتم الحالات وأكمل الوجوه فهو يميمت ويحيى ويوجد ويعدم ويغنى ويفقر وينزل الوحي على من يشاء من عباده ، وفى ذلك برهان ساطع على القدرة والرحمة ، فإن اختصاص كل شيء بوضع خاص وصفة معينة لا يكون إلا من مدبر اقتضت حكمته أن يكون كذلك ، فتديره لعالم الأجسام كتديره لعالم الأرواح وتديره للكبير كتديره للصغير لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يمنعه تدبير شيء عن تدبير آخر كما هو شأن المخلوقات فى هذه الدنيا ، وكذلك هو دليل أيضا على أنه تعالى متعال فى ذاته وصفاته وعلمه وقدرته لا يشبه شيئا من مخلوقاته .

( يفصل الآيات ) أى يلبس الموجودات ثوب الوجود بنظام محكم دقيق ، ويوجد بينها ارتباطات تجعلها كأنها سلسلة متصلة الخلقات لا انفصام لبعضها عن بعض ، فالجموعة الشمسية من الشمس والقمر والكواكب مرتبطة فى حركاتها بنظام خاص بواسطة الجاذبية لا تنجد عن سننه ولا تنجد معدلا عن السير فيه على حسب النهج الذى قدر لها ، ولا تزال كذلك حتى ينتهى العالم ، فيحدث حينئذ تغيير لأوضاعها ، واختلال لحركاتها : « إِذَا النُّجُومُ انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكُوكُوبُ انْتَبَرَتْ » .

وهكذا الموجودات الأرضية لها أسباب تعقبها مسببات بإذن الواحد الأحد ، فالزراع يحرق أرضه ويلقى فيها الحب ثم يسقيها ويضع فيها السماد ويوالى سقيها حتى تؤتى أكلها ، فإذا فقدت حلقة من تلك السلسلة باء صاحب الزرع بالخسران فلم يحصل على شيء أو حصل على القليل التافه الذى لا يعادل التعب والنصب الذى فعله .

ثم أبان سبحانه أن هذا التدبير للأموال والتفصيل للآيات الدالين على القدرة الكاملة والحكمة الشاملة ، جاءا لحكمة اقتضتهما وهى الإيقان بالبعث لفصل القضاء ومجازاة كل عامل بما عمل : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » فإما نعم مقيم وإما عذاب أليم ، وإلى ذلك أشار بقوله :

( لعلمكم ببقاء ربكم توقنون ) أى رجاء أن تتحققوا أن من قدر على رفع السموات بغير عمد ودير الأمر بإحكام ونظام - قادر على البعث والنشور وإحياء الموتى من القبور لفصل القضاء ثم ثواب كل عامل على ما عمل ، إن خيرا نخير وإن شرا فشر ؛ فإما سعادة لاشتهاء بعدها ، وإما نكال وعذاب تتبدل من هوله الجلود « كَمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا » .

وخلاصة هذه العبرة — إنه تعالى كما قدر على إبقاء الأجرام الفلكية العظيمة من الشمس والقمر وسائر الكواكب فى الجوابلا عمد ودير الأمور بغاية الإحكام والدقة ولم يشغله شأن عن شأن — ليس بالبعيد عليه أن يرد الأرواح إلى الأجساد ويُعيد العالم إلى حياة أخرى حياة استقرار وبقاء يفصل فيها القضاء ، وإذا أيقنتم بذلك ولتيم معرضين عن عبادة الأصنام والأوثان ، وأخلصتم العبادة للواحد الديان ، وأتمرتم بوعده ووعيده وصدقتم برسله وبأدرتم إلى اتباع أوامره وتركتم مانهى عنه ، ففرتم بسعادة الدارين .

وبعد أن ذكر سبحانه الدلائل السماوية على وحدانيته وكمال قدرته أردفها بالأدلة الأرضية فقال :

(١) ( وهو الذى مد الأرض ) أى جعلها متسعة ممتدة فى الطول والعرض ،  
 لتثبت عليها الأقدام ، ويتقلب عليها الحيوان ، وينتفع الناس بخيراتها زرعها وضرعها ،  
 وبما فى باطنها من معادن جامدة وسائلة ، ويسيرون فى أكنافها ينتفعون برزق  
 ربهم منها .

ولا شك أن الأرض لعظم سطحها هى فى رأى العين كذلك ، وهذا لا يمنع  
 كرويتها التى قد قامت عليها الأدلة لدى علماء الفلك ولم يبق لديهم فيها ريب .  
 (٢) ( وجعل فيها رواسى ) أى وأرساها بجبال راسيات شامخات لانتقل  
 ولا تتحرك حتى لا تتحيد وتضطرب .

(٣) ( وأنهارا ) أى وجعل فيها أنهارا جارية لمنافع الإنسان والحيوان ، فيسقى  
 الإنسان ماجعل الله فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال ويجعلها له طعاما  
 وفاكهة ، ويكون منها مادة حياته فى طعامه وشرابه وغذائه .

(٤) ( ومن كل الثمرات ، جعل فيها زوجين اثنين ) أى وجعل فيها من كل  
 أصناف الثمرات زوجين اثنين ذكرا وأنثى حين تكوّنهما ، فقد أثبت العلم حديثا أن  
 كل شجر وزرع لا يتولد ثمره وحبه إلا من اثنين ذكر وأنثى ، وعضو التذكير  
 قد يكون مع عضو الأنثى فى شجرة واحدة كأغلب الأشجار ، وقد يكون عضو  
 التذكير فى شجرة وعضو الأنثى فى شجرة أخرى كالنخل ، وما كان العضوان فيه  
 فى شجرة واحدة إما أن يكونا معا فى زهرة واحدة كالقطن ، وإما أن يكون كل  
 منهما فى زهرة كالقرع مثلا .

(٥) ( ينفشى الليل النهار ) أى يلبس النهار ظلمة الليل فيصير الجو مظلمًا  
 بعد أن كان مضيئًا فكأنه وضع عليه لباسا من الظلمة ، وكذلك يلبس الليل ضياء  
 النهار فيصير الجو مضيئًا ، وكل هذا تتم المنافع للناس بالسكون والاستقرار أو بالبحث  
 على المعاش والأرزاق كما قال : « أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ

وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا » وقال : « وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ » .

وبعد أن ذكر هذه الأدلة التي تشهد رأى العين فى كل صباح ومساء وفى كل حين ووقت ، ذكر أن هذه الأدلة لا يلتفت إليها ولا يعتبر بها إلا من له فكر يتدبر به وعقل يهتدى به إلى وجه الصواب وينتقل من النظر فى الأسباب إلى مسبباتها فقال : ( إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ) أى إن فيما ذكر من عجائب خلق الله وعظيم قدرته التى خلق بها هذه الأشياء العظيمة - لدلائل وحجج لمن يتفكر فيها ويعتبر فيعلم أن الخالق لذلك هو القاهر فوق العباد وهو ذو الإرادة المطابقة والقدرة الشاملة ، فلا يعجزه إحياء من هلك من خلقه ولا إعادة من فى منهم ولا ابتداع ما شاء ابتداعه ، ومن ثم لا تجوز العبادة إلا له ولا التذلل والخضوع إلا لسلطانه ، ولا ينبغي أن تكون لصنم أو وثن أو حجر أو شجر أو ملك أو نبي أو غير أولئك ممن سلب النفع والضرر ، بل لا يستطيع صرف الأذى عن نفسه : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْنَاهُمْ الذُّبَابَ شَيْئًا لَاسْتَغْفِرُوهُ مِنْهُ » .

وقد روى « تفكروا فى آلاء الله ولا تتفكروا فى الله » .

(٦) ( وفى الأرض قطع متجاورات ) أى وفى الأرض بقاع متجاورات متدانيات يقرب بعضها من بعض وتختلف بانتفاضل مع تجاورها ، فمن سبخة لانبت شيئا إلى أرض جيدة القربة تجاورها وتنتب أفضل الثمرات ومختلف النبات ، ومن صالحة للزرع دون الشجر ، إلى أخرى مجاورة لها تصلح للشجر دون الزرع ، إلى متدانية لهما تصلح لجميع ذلك ، ومنها الرخوة التى لانكاد تماسك وهى تجاور الصلبة التى لانفتتها المعاول وأدوات التدمير من المفرعات ( الديناميت والقنابل ) وكلها من صنع الله وعظيم تدبيره فى خلقه .

( وجنات من أعناب ) أى وفيها بساتين من أشجار الكرم .

( وزرع ) أى وفيها زرع من كل نوع وصنف من الحبوب المختلفة التى تكون غذاء للإنسان والحيوان .

( ونخيل صنوان وغير صنوان ) أى وفيها نخيل صنوان يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها ، وغير صنوان أى متفرقات مختلفة الأصول .

( يسقى بماء واحد وفضل بعضها على بعض فى الأكل ) أى يسقى كل ما ذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل بماء واحد لا اختلاف فى طبعه ، ومع وجود أسباب التشابه يفضل بمحض القدرة بعضا منها على بعض فى الثمرات شكلا وقدرًا ورائحة وطعما وحلاوة وحموضة .

ثم بين أن مثل هذا لا يفكر فيه إلا من أوتى العقل الذى يفكر فى المقدمات والنتائج والأسباب والمسببات فقال :

( إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ) أى إن فيما فصل من الأحوال السالفة لآيات باهرة لقوم يعملون على قضية العقل ، فمن ير خروج الثمار المختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح فى تلك البقاع المتلاصقة ، مع أنها تسقى بماء واحد وتتشابه وسائل نموها - يجزم حتما بأن لذلك صانعا حكما قادرا مدبرا لا يعجزه شيء ، وكذلك يعتقد بأن من قدر على إنشاء ذلك ، فهو قادر على إعادة مبادئه أول مرة ، بل هو أهون منه لدى النظر والاعتبار .

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟  
 أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَاءُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ  
 أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ  
 قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُهُومِهِمْ ،

وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧).

### شرح المفردات

العجب : تغير النفس حين رؤية ما يستبعد في مجرى العادة ، والأغلال : واحدها غل ، وهو طوق من الحديد طرفاه في اليدين ويحيط بالعنق ، والمثلاث ( بفتح فضم ) واحدها مثلة ( بفتح فضم ) كسمرة : وهي العقوبة التي تترك في المعاقب أثرًا قبيحا كصلم أذن أو جدد أنف أو سمل عين ، والغفر : الستر بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة ، والمراد بالآية هنا الآيات الحسية كقالب عصا موسى حية وناقص صالح ، والإنذار : التخويف ، والمهادى : القائد الذي يقود الناس إلى الخير كالأنبياء والحكماء والمجاهدين .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنكارهم لوحدايته تعالى مع وضوح الأدلة على ذلك من خلق السموات بلا عمد وتسخير الشمس والقمر يجريان إلى أجل مسمى ، ومن مد الأرض وإلقاء الجبال الرواسى فيها إلى آخر ما ذكر من الآيات الدالة على عظيم قدرته وبديع صنعه لمن يتأمل ويفكر فى ذلك المللكوت العظيم - ذكر هنا إنكارهم للبعث والنشور على وضوح طريقته وسطوع دليله قياسا على ما يرون ويشاهدون ، فإن من قدر على خلق السموات والأرض وسائر العوالم على هذا النحو الذى يحار الإنسان فى الوصول إلى معرفة كنهه لا يعجز عن إعادته فى خلق جديد كما قال تعالى :  
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُم مِّن قَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّبَهُمُ الْيَوْمَ ؟ .

## الإيضاح

( وإن تعجب فعجب قولهم أنذا كنا تراباً أننا لفي خلق جديد ؟ ) أى وإن تعجب من عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام والأوثان بعد أن قامت الأدلة على التوحيد ، فأعجب منه تكذيبهم بالبعث واستبعادهم إياه بقولهم :  
 ( أنذا كنا تراباً أننا لفي خلق جديد ؟ ) أى أنذا فئنا وبلينا نعاد بعد العدم ، مع أنهم لا ينكرون قدرته تعالى على إيجادهم بداة ذى بدء وتصويرهم فى الأرحام وتديير شئونهم حالاً بعد حال .

وقد تكرر هذا الاستفهام فى أحد عشر موضعاً فى تسع سور من القرآن: فى الرعد، والإسراء ، والمؤمنون ، والنحل ، والمنكوت ، والسجدة ، والصفات ، والواقعة ، والنازعات ؛ وكلها تتضمن كمال الإنكار وعظيم الاستبعاد .

ثم وصف أولئك المنكرين للبعث فقال :

( أولئك الذين كفروا بربهم ) أى أولئك الذين جحدوا قدرة ربهم وكذبوا رسوله على ما عاينوا من آياته الكبرى التى ترشدهم إلى الإيمان وتهديهم سبيل الرشاد لو كانوا يبصرون - هم الذين تمادوا فى عنادهم وكفروهم ، فإن إنكار قدرته تعالى بإنكار له لأن الإله لا يكون عاجزاً .

( وأولئك الأغلال فى أعناقهم ) أى وأولئك مقيدون بسلاسل وأغلال من الضلال تصدمهم عن النظر فى الحق واتباع طريق الهدى والبعد عن الهوى كما قال :  
 كيف الرشاد وقد خلقت فى نفر لهم عن الرشاد أغلال وأقياد

وقد يكون المعنى - إنهم يوم القيامة عند العرض للحساب توضع الأغلال فى أعناقهم كما يقاد الأسير الدليل بالغل ، ويؤيده قوله تعالى : « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » .

( وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ) أى وأولئك هم المالكثون فى النار دار

الذل والهوان لا يتحولون عنها ولا يبرحونها كيفاء ما سوت لهم أنفسهم من سيء الأعمال وما اجترحوا من الموبقات والشرور والآثام : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

وبعد أن ذكر تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم في إنكار عذاب يوم القيامة ذكر جحودهم لعذاب الدنيا الذى أوعدهم به ، وكانوا كلما هددهم بالعذاب قالوا له نحننا بهذا العذاب وطلبوا منه إزاله ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(ويستمجلونك بالسئمة) أى ويستمجلونك بالعقوبة التى هددوا بها إذا هم أصروا على الكفر استهزاء وتكديبا كما حكى الله عنهم فى قوله « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ » وفى قوله « وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ » وفى قوله « سَأَلْنَا بِعَذَابٍ وَاقِعٍ » .

(قبل الحسنه) أى قبل الثواب والسلامة من العقوبة ، وكان صلى الله عليه وسلم يعدم على الإيمان بالثواب فى الآخرة وحصول النصر والظفر فى الدنيا .  
(وقد خلت من قبلهم المثالات) أى ويستمجلونك بذلك مستهزئين بإنذارك منكرين ووقع ما تنذرهم به ، والحال أنه قد مضت العقوبات الفاضحة النازلة على أمثالهم من المكذبين المستهزئين ، فمن أمة مسخت قرده ، وأخرى أهلكت بالرجفة ، وثالثة أهلكت بالخسف إلى نحو أولئك .

(وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أى وإن ربك لذو غفو وصفح عن ذنوب من تاب من عباده فتارك فضيخته بها فى يوم القيامة ، ولولا حلمه وغفوه لعاجلهم بالعقوبة حين اكتسابها كما قال « وَلَوْ يَوَازِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » .

(وإن ربك لشديد العقاب) لمن يجترح السيئات وهو متماد فى غوايته سادر

في آثامه ، وقد يعجل له قسطاً منه في الدنيا ويكون جزاء له على ما سوت له نفسه كما يشاهد لدى المدمنين على الخمر من اعتلال وضعف ومرض مزمن ومقر مدقع وذلل وهوان بين الناس ، وفي المقامرين من خراب عاجل وإفلاس في المال والذلل بعد العز ، وربما اقتضت حكمته أن يؤجل له ذلك إلى يوم مشهود يوم يقوم الناس لرب العالمين فيستوفى قسطه هناك نارا تكوى بها الجباه والجنوب ، وتبدل الجلود غير الجلود ، وقد قرن المغفرة بالعقاب في مواضع كثيرة من الكتاب الكريم ليعتدل الرجاء والخوف كقوله « إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » وقوله « نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الخوف والرجاء .

روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية ( وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ) الخ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا عقو الله وتجاوزه ما هنا أحدا العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل واحد » .

وبعد أن ذكر طعنهم في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لقوله بالحشر والمعاد ، ثم طعنهم فيه لأنه أنذرهم بحلول عذاب الاستئصال ذكر أنهم طعنوا فيه لأنه لم يأت لهم بمعجزة مبينة كما فعل الرسل من قبله فقال :

( ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ) أى ويقول الذين كفروا تمننا وجحودا : هلا يأتينا بآية من ربه كعصا موسى وناقة صالح ، فيجعل لنا الصفا ذهباً ويزيح عنا الجبال ويجعل مكانها مروجا وأنهارا ، وقد طلبوا ذلك ظناً منهم أن القرآن كتاب كسائر الكتب لا يدخل في باب المعجزات التي أتى بها الرسل السالفون .

وقد رد الله عليهم الشبهة بقوله في آية أخرى « وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ » أى إن سنتنا أن الآيات إن لم يؤمن بها من طلبوها أهلكتناهم بذنوبهم ، ولم نشأ أن يحل بكم عذاب الاستئصال .

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم راغباً في إجابة مقترحاتهم حباً في إيمانهم  
بين له وظيفته التي أرسل لأجلها فقال :

(إنما أنت منذر) أى إن مهمتك التي بعثت لها هي الإنذار من سوء مغبة  
ما نهى الله عنه كدأب من قبلك من الرسل ، وليس عليك الإتيان بالآيات التي  
يقترحونها ابتغاء هدايتهم ، فأمر ذلك إلى خالقهم وهاديهم « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ  
وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » ، « فَلَمَّا كَبَخِعْتُمْ نَفْسَكُمْ عَلَى آثَارِهِمْ لَوْ لَمْ  
يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

(ولكل قوم هاد) أى ولكل أمة قائد يدعوهم إلى سبيل الخير ، فطره الله على  
سلوك طريقه بما أودع فيه من الاستعداد له بسائر وسائله ، وقد شاء أن يبعث هؤلاء  
الهداة في كل زمان كي لا يترك الناس سدى ، وأولئك هم الأنبياء الذين يرسلهم  
لهداية عباده، فإن لم يكونوا فالحكماء والمجتهدون الذين يسرون على سنتهم وبقوتهم  
بما خلفوا من الشرائع وفضائل الأخلاق وحميد الشامل ، ويؤيده قوله صلى الله  
عليه وسلم « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَادُ ،  
وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِعَقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)  
سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ  
وَسَابِرٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ  
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ، وَإِذَا  
أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١) .

## شرح المفردات

الغيض : النقصان يقال غاض الماء وغطته كما قال « وَغِيضَ الْمَاءَ » بمقدار ، أى بأجل لا يتجاوز ولا ينتقص عنه ، والغائب : ما غاب عن الحس ، والشاهد : الحاضر للمشاهد ، الكبير : العظيم الشأن ، والمتعالى : المستعلى على كل شيء ، وأسر الشيء : أخفاه في نفسه ، والمستخفى : المبالغ في الاختفاء ، والسارب : الظاهر ، من قولهم سرب : إذا ذهب في سرّبه (طريقه) معقبات ، أى ملائكة تعتقب في حفظه وكلاءته واحدها معقبة ، من عقبه : أى جاء عقبه ، من بين يديه ، أى قدامه ، ومن خلفه ، أى من ورائه ، من أمر الله ، أى بأمره وإعانتة ، وال ، أى ناصر .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه إنكار المشركين للبعث واستبعادهم له كما حكى عنهم بقوله « أَتَيْدَا كُنَّا تَرَابًا أَتَيْنَا لَبِي خَلْقٍ جَدِيدٍ » ، إذ رأوا أن أجزاء الحيوان حين نفثها وتفرقها يختلط بعضها ببعض ، وقد تنثر في بقاع شتى ونواح عدة وربما أكل بعض الجسم سبع وبعضه الآخر حداة أو نسر ، وحينئذ يأكل السمك قطعة منه وأخرى يجرى بها الماء وتدفن في بلد آخر ، أزال هذا الاستبعاد بأن الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، والذى يعلم الأجنة في بطون أمهاتها ، ويعلم ما هو مشاهد لنا أو غائب عنا يعلم تلك الأجزاء المتناثرة ومواضعها مهما نأى بعضها عن بعض ويضم متفرقاتها ويعيدها سيرتها الأولى .

## الإيضاح

(الله يعلم ما تحمل كل أنثى) من ذكر أو أنثى ، واحد أو متعدد ، طويل العمر أو قصيره كما قال « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ » ، وقال « وَيَعْلَمُ تَمَافِي الْأَرْحَامِ » .

(وما تقيض الأرحام وما تزداد) أى وما تنقصه الأرحام وما تزداده من عدد فى الولد فقد يكون واحدا وقد يكون اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، ومن جسده فقد يكون تاما وقد يكون ناقص الخلق وهو المخدج ، ومن مدة الحمل فقد تكون أقل من تسعة أشهر وقد تكون تسعة إلى عشرة أشهر تقريبا ، فقد دل الإحصاء والبحث الذى عمل فى مستشفيات لندن على أن الجنين لا يستقر فى البطن وهو حى أكثر من ٣٠٥ يوم ، وفى مستشفيات برلين على أنه لا يستقر أكثر من ٣٠٨ ومن ثم جرت المحاكم الشرعية الآن على أن عدة المطلقة لا تكون أكثر من سنة بيضاء أى سنة قمرية أى ٣٥٤ يوما ، وهو رأى فى مذهب مالك .

(وكل شيء عنده بمقدار) أى ولكل شيء ميقات معين لا يعدوه زيادة ولا نقصا « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » .  
وفى معنى الآية قوله تعالى « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » وفى الحديث « إن إحدى بنات النبي صلى الله عليه وسلم بعثت إليه رسولا : أن ابنا لها فى الموت وأنها تحب أن تحضره ، فبعث إليها يقول « إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فمرها فلتصبر ولتحتسب » .

(عالم الغيب والشهادة) أى عالم ما هو غائب عنكم لا تدركه أبصاركم من عوالم لا نهاية لها ، فقد أثبت العلم حديثا أن هناك عوالم لا تراها العين المجردة بل ترى بالمنظار المعظم ( التليسكوب ) ومنها الجرائم ( المكروبات ) التى تولد كثيرا من الأمراض التى قد يعسر شفاؤها أو يتعذر فى كثير من الأحوال كجرائم السرطان والسنل والزهرى ، أو تشفى بعد حين كجرائم الجدري و (الدفتيريا) والحصبية ونحوها وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » ، وما تشهدونه وترونه بأعينكم « وَمَا يَعْرَبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَضْفَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .

(الكبير المتعال) أى هو العظيم الشأن الذى يجعل عما وصفه به الخلق من صفات الخلقين ، المستعلى على كل شئ بقدرته وجبروته وهو وحده الذى له التصرف فى ملكوته .

وقى هذا إيماء إلى أنه تعالى قادر على البعث الذى أنكروه ، والآيات التى أقرحوها ، والعذاب الذى استعجلوه ، وإنما يؤخر ذلك لمصلحة لا يذركها البشر فيخفى عليه سرها .

وفى معنى الآية قوله « سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ » .

ثم بين أن علمه تعالى شامل لجميع الأشياء فقال .

(سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) أى من أسر قوله وأخفاه ولم يتلفظ

به ، أو جهر به وأظهره فهو سواء عند الله بسمعه ولا يخفى عليه شئ منه كما قال « وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » وقال « وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ » قالت عائشة : سبحان الذى وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى جنب البيت وإنه ليخفى على بعض كلامها فأنزل الله « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » .

(ومن هو مستخف بالليل) أى مخفى فى عقر داره فى ظلام الليل .

(وسارب بالنهار) أى ظاهر ماش فى بياض النهار ، فكلاهما عند الله سواء ،

وروى عن ابن عباس فى تفسير ذلك : هو صاحب ربيبة مستخف بالليل ، وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه برىء من الإثم .

(له معقبات من بين يديه ومن خلفه) أى للانسان ملائكة يتعاقبون عليه :

حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من الضار ويراقبون أحواله ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ أعماله من خير أو شر ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فائتان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال

يكتب السيئات ، وملكاً آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورائه وآخر من قدماه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلا ، حافظان وكتبان كما جاء في الحديث الصحيح « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين أتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون أتيناهم وهم يضلون وتركناهم وهم يصلون » .

وإذا علم الإنسان أن هناك ملائكة تحصى عليه أعماله كان حذرا من وقوعه في المعاصي خيفة أن يطاع عليه الكرام الكاتبون ويزرجه الحياء عن الإقدام على فعل الموبقات كما يحذر من الوقوع فيها إذا حضر من يستحى منه من البشر ، وهو أيضا إذا علم أن كل عمل له في كتاب مدخر يكون ذلك رادعا له داعيا إلى تركه .

وليس أمر الحفظة بالبعيد عن العقل بعد أن أثبتته الدين وبعد أن كشف العلم أن كثيرا من الأعمال العامة يمكن إحصاؤها بآلات دقيقة لاتدع منها شيئا إلا تحصيه ، فقد أصبحت المياه والكهرباء في المدن تمد بالآلات (العدادات) فالمياه التي يشر بونها والكهرباء التي يضيئون بها منازلهم تحصى وتمد كما يعد الدرهم والدينار ، وكذلك هناك آلات تحصى المسافات التي تقطعها السيارات في سيرها ، وأخرى تحصى تيارات الأنهار ومساقط المياه إلى غير ذلك من دقيق الآلات التي لا تترك صغيرة ولا كبيرة من الأعمال إلا تكتبها وتحصيها .

وكما تقدمت العلوم وكشفت ما كان غائبا عنا كان في ذلك تصديق أيما تصديق لنظريات الدين ووسيلة حافزة إلى الاعتراف بما جاء فيه مما يخفى على بعض الماديين الذين لا يقرون إلا بما يرونه رأي العين ولا يذعنون إلا بما يقع تحت حسهم ، وبهذا يصدق قول القائل (الدين والعقل في الإسلام صنوان لا يفترقان ، وصديقان لا يختلفان) .

( يحفظونه من أمر الله ) أي هم يحفظونه بأمر الله وإذنه وجميل رعايته وكلاءته ، فسما جعل سبحانه للمحسوسات أسبابا محسوسة ربط بها مسبباتها على حسب ما اقتضته حكمته ، فجعل الجفن سببا لحفظ العين مما لم يرد أن يكون ، كذلك

جعل لغير المحسوسات أسبابا ، فجعل الملائكة أسبابا للحفظ ، وأفعاله تعالى لا تخلو من الحكم والمصالح .

وكذلك جعل لحفظ أعمالنا كراما كاتبين وإن كنا لاندرى ماقلهم وما مدادهم وكيف كتابتهم وأين محلهم وما حكمة ذلك ، مع أن علمه تعالى بأعمال الإنسان كاف في الثواب والعقاب عليها ، وقد يكون من حكمة ذلك أنه إذا علم الإنسان أن أعماله محفوظة لدى الحفظة الكرام كان أجدر بالإذعان لما يلقاه من ثواب وعقاب يوم العرض والحساب .

ولمفسرى السلف أقوال في الآية . قال ابن عباس : هم الملائكة تعقب بالليل تكتب على ابن آدم ويحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، وذلك الحفظ من أمر الله و بإذن الله ، لأنه لا قدرة للملائكة ولا لأحد من الخلق أن يحفظ أحدا من أمر الله وبما قضاه عليه إلا بأمره وإذنه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه . وقال علي : ليس من عبد إلا نعمة ملائكة يحفظونه من أن يقع عليه حائط أو يتردى في بئر أو يأكله سبع أو يفرق أو يحرق ، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر اه .

( إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ) أى إن الله لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية فيزيلها عنهم ويذهبها حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضا واعتداء بعضهم على بعض ، وارتكابهم للشرور والموبقات التى تقوض نظم المجتمع وتفتك بالأمم كما تفتك الجرائم بالأفراد .

روى أن أبا بكر قال : قال صلى الله عليه وسلم « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب » ويرشد إلى صحة هذا قوله تعالى : « **وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً** » وقد بسطنا هذا فيما سلف في مواضع متعددة وأشار إليه المحقق المؤرخ ابن خلدون في مقدمة التاريخ وعقد له بابا جعل عنوانه ( فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران ) واسترسل فيه على النهج المعروف عنه وضرب له الأمثلة بما حدث في كثير من الأمم قبل الإسلام

وبعد و بين أن الظلم قد نل عزوشها وأذل أهلها وجعلها طعنة للآكلين ومثلاً للآخرين .

وفي حال الأمم الإسلامية اليوم وقد اجتمعت من أطرافها وتحكم فيها أهل الغرب وأذلوها بعد أن استعمروها عبرة لمن تدبر وألقى السمع وهو شهيد ، والقرآن شاهد على صدق هذه النظرية ، كما قال : « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » وقوله « إِنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أي الصالحون لاستعمارها والانتفاع بخيراتها ما ظهر منها وما بطن .

( وإذا أراد الله بقوم سراً فلا مرد له ) أي وإذا أراد الله بقوم سوءاً من مرض وفقر ونحوهما من أنواع البلاء بما كسبت أيديهم حين أخذوا في الأسباب التي تصل بهم إلى هذه الغاية ، فلا يستطيع أحد أن يدفع ذلك عنهم ولا يرد ما قدره لهم .

وفي هذا إيماء إلى أنه لا ينبغي الاستعجال بطلب السيئة قبل الحسنة ، وطلب العقاب قبل الثواب فإنه متى أراد الله ذلك وأوقعه بهم فلا دافع له .  
والخلاصة — إنه ليس من الحكمة في شيء أن يستعجلوا ذلك .

( وما لهم من دونه من وال ) أي وما لهم من دون الله سبحانه من يلي أمورهم فيجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضر ، فالآلهة التي اتخذوها لا تستطيع أن تفعل شيئاً من ذلك ولا تقدر على دفع الأذى عن نفسها فضلاً عن دفعه عن غيرها .  
ولله در الأعرابي الذي رأى صنماً يبول عليه الثعلب فتارت به حميته فأمسكه وكسره إرباً إرباً وقال :

أربُّ يبول الثعلبان برأسه      لقد ذل من بالث عليه الثعلاب  
وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْتَأْذِنُوا لَأَنَسْتَفْتِيَهُمْ الذُّبَابُ شَيْئاً لَاسْتَفْتِيَهُمْ مِنْهُ » .

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢)  
وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، وَالْمَلَأَكَةُ مِنْ خَيْفَتِهِ ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ

فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ، وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُ  
 دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ  
 كَفِيٍّ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَن دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي  
 ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا  
 وَظِلَالَهُم بِالْعُدْوَةِ وَالْأَصَالِ (١٥) .

### شرح المفردات

البرق : ما يرى من النور لأمما خلال السحاب ، والرعد : هو الصوت المسموع  
 خلال السحاب . وسببهما على ما بين في العلوم الطبيعية - أن البرق يحدث من تقارب  
 سحابتين مختلفتي الكهربية ، حتى يصير ميل إحداهما للاقتراب من الأخرى أشد  
 من قوة الهواء على فصلها ، فتبهجم كل منهما على الأخرى بنور زاهر وصوت قوى  
 شديد ، فذلك النور هو البرق . والصوت هو الرعد الذي نشأ من تصادم دقائق  
 الهواء الذي تطرده كهربية البرق أمامها ، والصواعق : واحدها صاعقة . وسببها أن  
 السحب قد تمتلئ بكهربية والأرض بكهربية أخرى والهواء يفصل بينهما ، فإذا  
 قاربت السحب وجه الأرض تنقص الحرارة الكهربية منها فتنزّل صاعقة تهلك  
 الحرث والنسل ، والمجادلة : من الجدل وهو شدة الخصومة ، وأصله من جدلت الحبل  
 إذا أحكمت فتله كأن المجادلين يفتتل كل منهما الآخر عن رأيه ، والمحال : أى المماحلة  
 والمكابدة لأعدائه ، يقال محل فلان بفلان إذا كايده وعرضه للهلاك ، وتمحل إذا  
 تكلف في استعمال الحيلة ، في ضلال : أى ضياع وخسار ، والظلال : واحدها ظل  
 وهو الخيال الذى يظهر للجرم ، والعدو : واحدها غداة كقبي وقناة وهى أول النهار،  
 والأصال ، واحدها أصيل : ما بين المصير والمغرب .

## المعنى الجملى

بعد أن خوِّف سبحانه عباده بأنه إذا أراد السوء يقوم فلا يدفعه أحد - أتبعه  
بذكر آيات تشبه النعم والإحسان حيناً وتشبه العذاب والنقم حيناً آخر .  
روى « أن عامر بن الطفيل وأزبد بن ربيعة أخا ليبيد وقد أبا رسول الله صلى  
الله عليه وسلم بالمدينة وسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما ذلك ، فقال له  
عامر لعنه الله : أما والله لأملأنها عليك خيلاً جُرُداً ورجالا مُرُداً ، فقال له رسول الله  
صلى الله عليه وسلم : يا أبى الله عليك ذلك وابنا قَيْلَةَ ( الأنصار من الأوس والخزرج )  
ثم إنهما هما بالفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل أحدهما يخاطبه والآخر  
يستل سيفه ليقتله من ورائه ، فغماه الله تعالى منهما وعصمه ، فخرجا من المدينة وانطلقا  
في أحياء العرب يجمعان حربيه ، فأرسل الله على أزبد سبحانه فيها صاعقة فأحرقته ،  
وأرسل الطاعون على عامر فخرجت فيه غدة كغدة البكر ، فأوى إلى بيت سلوئية  
وجعل يقول : ( غدة كغدة البكر وموت في بيت سلوئية ، حتى مات ) وأنزل الله  
في مثل ذلك « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله » .

## الإيضاح

( هو الذى يريكم البرق خوفاً وطبعاً ) أى إنه سبحانه يسخر البرق فيخاف منه بعض عباده كالمسافر ومن فى جربينه التمر والزبيب للتخفيف ، ويطمع فيه من له فيه النفع كمن يرجو المطر لسقى زرعته ، وهكذا حال كل شىء فى الدنيا هو خير بالنظر إلى من يحتاج إليه فى أوانه ، وشر بالنظر إلى من يضره على حسب مكانه أو زمانه ،  
( وينشىء السحاب الثقال ) أى ويوجد السحب منشأة جديدة ممتلئة ماء فتكون ثقيلة قريبة من الأرض .  
( ويسبح الرعد بحمده ) أى إن فى صوت الرعد دلالة على خضوعه وتبزيهه

عن الشريك والمعجز كما يدل صوت المسيح وتحميده على اتقياده لقدرة ذلك الحكيم الخبير، ونحو الآية قوله سبحانه: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا إِسْمِعُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ» .

أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عمر «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد والصواعق يقول: اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك» .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا هبت الريح أو سمع صوت الرعد تغير لونه حتى يُعرف ذلك في وجهه، ثم يقول للرعْد: سبحان من سبحت له، وللريح: اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا» .  
(والملائكة من خيفته) أي ويسبح الملائكة الكرام من هيئته وجلاله، وينزهونه عن اتخاذ الصاحبة والولد .

(ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) إصابته بها قهلا كره .  
(وهم يجادلون في الله) أي يجادلون في شأنه تعالى وفيما وصفه به الرسول الكريم من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية وإعادة الناس للجزاء على أعمالهم يوم العرض والحساب .

وفي هذا تسليية لرسوله صلى الله عليه وسلم فإنه لما نعى على كفار قريش عنادهم في اقتراحهم الآيات الحسنية كآيات موسى وعيسى عليهما السلام، وإنكارهم كون الذي جاء به عليه السلام آية - سلاه بما ذكر كأنه قال له: إن هؤلاء لم يقصروا جحدهم وإنكارهم على النبوة بل تحطوه إلى الألوهية، ألا تراهم مع ظهور الآيات البينات على التوحيد يجادلون في الله باتخاذ الشركاء وإثبات الأولاد له، ومع إحاطة علمه وشمول قدرته ينكرون البعث والجزاء والعرض للحساب، ومع شديد بطشه وعظيم سلطانه يقدمون على المكابدة والعناد، فهون عليك ولا تذهب نفسك عليهم حسرات .

( وهو شديد الحال ) أى وهو سبحانه لا يغالب فهو شديد البطش والسكيد لأعدائه يأتهم من حيث لا يحتسبون ولا يتقربون ، وهو القادر على أن ينزل عليهم عذابا من عنده لا يستطيعون حيلة لدفعه ولا قوة على رده ، لكنه يمهلهم لأجل معلوم على حسب ما تقتضيه الحكمة كاصح فى الحديث : « إن ربك لا يهمل ولكن يمهّل » ومثل الآية قوله : « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » وقوله : « وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَمَكْرُؤًا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ » .

قال ابن جرير فى تفسير ذلك : والله شديدة مما خلقته فى عقوبة من طغى عليه وعى وتمادى فى كفره .

( له دعوة الحق ) أى له تعالى الدعاء والتضرع الواقع حيث ينبغى أن يكون ، والحجاب حين وقوعه ، أى إن إجابة ذلك له تعالى دون غيره .

وفى هذا وما قبله وعيد للكفار على مجادلتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم ، وتهديدهم بإجابة دعائه عليه السلام إن دعا عليهم . وقيل دعوة الحق كلمة التوحيد: أى لله من خلقه أن يوحده ويخلصوا له ، وإنه شرعها وأمر بها . ( والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ) أى والأصنام الذين يدعوم المشركون ويتضرعون إليهم ويتجاوزون الله لا يجيبونهم بشيء مما يريدونه من نفع أو ضرر إلا كما يجيب الماء لمن بسط كفيه إليه يطاب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا شعور له يبسط الكفين ولا قبضهما ، فكيف يجيب دعاءه ، وهكذا أصنامهم لاتجيب جوابا .

وخلاصة ذلك — إنه شبه آلهتهم حين استكفوا بهم ما أهمهم ، وهم لا يشعرون بشيء فضلا عن أن يجيبوا أحدا — بماء برأى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه هلم أقبل إلىّ وهو لا يستطيع ردا ولا جوابا .

(وما دعاء الكافرين إلا في ضلال) أى فى ضياع وخسار ، فإن دَعَوْا الله لم يجهم ، وإن دعوا الأصنام لم تستطع إجابتهم .

ثم بين عظيم قدرته تعالى فقال :

( والله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها ) أى وينقاد لعظمته كل شىء ، فيخضع له الملائكة والمؤمنون من الثقليين طوعا فى الشدة والرخاء ، والكفار كرها فى حال الشدة كما جاء فى آيات كثيرة كقوله : « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهَهُ » وقوله : « فَإِذَا رَكَبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » وقوله « لَنْ نُنَجِّيَنَكَ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » .

( وظلالهم بالغدو والآصال ) أى وتسجد أيضا ظلال كل من كفر بالله طوعا أو كرها بالغدوات والعشايا تبعاً لانقياد الأجسام التى تشرق عليها الشمس ، فيصرفها الله تعالى بالمد والتقلص ، وتخصيص هذين الوقتين بالذكر لظهور الامتداد والتقلص فيهما ، أو المراد بهما الدوام كما جاء ذلك كثيرا فى استعمالاتهم .

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ، قُلْ أَفَأَتَّخِذْتُمْ مِنْ دُونِهِ  
أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ؟ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى  
وَالْبَصِيرُ ؟ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ؟ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا  
كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ؟ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ  
الْقَهَّارُ (١٦) .

### المعنى الجبلى

بعد أن بين سبحانه أن كل من فى السموات والأرض خاضع لقدرته منقاد لإرادته بالغدو والآصال ، وفى كل وقت وحين ، طوعا أو كرها على حسب ما يريد .

أعاد الكلام مع المشركين ليلزمهم الحجة ويقنعهم بالدليل ويضيق عليهم باب الحوار حتى لا يستطيعوا الفرار من الاعتراف بوحدانيته وشمول قدرته وإرادته وأنه لا معبود سواه ولا رب غيره .

## الايضاح

( قل من رب السموات والأرض ) أى قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين اتخذوا من دونه أولياء : من رب هذه الأجرام العلوية والسفلية التى تبهر العقول بجميل صنعها وكامل ترتيبها ووضعها ؟

( قل الله ) أى قل لهم : الذى خلقها وأنشأها وسواها على أتم وضع وأحكم بناء هو الله ، وقد أمر عليه السلام ليجيب بذلك للإشارة إلى أنه هو وهم سواء فى ذلك الجواب الذى لا محيص منه وهم لا ينكرونه البتة كما قال تعالى : « وَكَلِمَاتِهِمْ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » .

( قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟ ) أى قل لهم بعد أن ثبت هذا لديكم : فلم اتخذتم لأنفسكم من دون الله معبودات هى جمادات لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا ؟ فكيف تنفع غيرها أو تضر ؟ وإذا لم يكن لها القدرة على شىء من ذلك فعبادتها محض السفه الذى لا يرضاه لنفسه رشيد يزن أعماله بميزان الحكمة والمصلحة .

وخلاصة ذلك — أقبعد أن علمتم أنه هو الخالق لهذا الخلق العظيم تتخذون من دونه أولياء هم غاية فى العجز؟ وجعلتم ما كان يجب أن يكون سببا فى الاعتراف بالوحدانية وهو علمكم بذلك — سببا فى إشراككم به سواه من أضعف خلقه ، وهو بمعنى قوله : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ » ثم ضرب مثلا للمشركين الذين يعبدون الأصنام والمؤمنين الذين يعترفون بأن لا رب غيره ولا معبود سواه ، فقال :

الذي ( قل هل يستوى الأعمى والبصير ) أى قل لهم مصورا ستخيف آرائهم مقلدا  
تقييح معتقداتهم : هل يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئا ولا يهتدى لحجة يسلكها  
إلا بأن يهتدى بدليل ، والبصير الذى يهتدى الأعمى لسلك الطريق ؟ لاشك أن  
الجواب أنهما غير متساويين ، فكذلك المؤمن الذى يبصر الحق فيتبعه ويعرف  
الهدى فيسلكه ، لا يستوى وإياكم ؟ وأنتم لا تعرفون حقا ولا تبصرون رشدا .  
ثم ضرب مثلا للكفر والإيمان بقوله :

( أم هل تستوى الظلمات والنور ) أى هل تستوى الظلمات التى لا ترى فيها  
الطريق فتسلك ، والنور الذى يبصر به الأشياء ، ويجلو ضوءه الظلام - لاشك أن  
الجواب عن ذلك أنهما لا يستويان ، فكذلك الكفر بالله صاحبه منه فى حيرة ،  
يضرب أبدا فى غمرة ، لا يهتدى إلى حقيقة ولا يصل إلى صواب ، والإيمان بالله صاحبه  
منه فى ضياء ، فهو يعمل على علم بربه ومعرفة منه بأنه يثيبه على إحسانه ويعاقبه على  
إساءته ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ويكلؤه بعنايته فى كل وقت وحين ، فهو يقوض  
أمره إليه إذا أظلمت الخطوب ، وتعقدت فى نظره مدطحات الحوادث .

( أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ) أى أخلق أوثانكم  
التي اتخذتموها معبودات من دون الله ، خلقا كخلقه ، فاشتبه عليكم أمرها فيما خلقت  
وأخلق الله ، فجعلتموها له شركاء من أجل ذلك - أم إنما بكم الجهل والبعد عن  
الصواب ، إذ لا يخفى على من له مُسكة من العقل أن عبادة ما لا يضر ولا ينفع من  
الجهل بحقيقة العبود ومن يجب له التذلل والخضوع والإنابة والزلفى والإخبات إليه ،  
وإنما الواجب عبادة من يرجى نفعه ويخشى عقابه وضره ، وهو الذى يرزقه ويمونه  
آثناء الليل وأطراف النهار .

ثم ذكر فذلكة لما تقدم ونتيجة لما سبق من الأدلة والأمثال التى ضربت  
لها فقال :

( قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ) أى قل فمينا لهم وجه الحق :

الله خالقكم وخالق أوثانكم وخالق كل شيء ، وهو الفرد الذي لا ثاني له ، الغالب على كل شيء سواه ، فكيف تعبدون غيره وتشركون به ما لا يضر ولا ينفع .

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) أَفَنْ يَعْلَمُ أَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩)

### شرح المفردات

الأودية : واحدها وادٍ ، وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء ، والفرجة بين الجبلين ، وقد يراد به الماء الجاري فيه ، بقدرها : أى بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة على حسب تفاوت أمكنتها صفرا وكبرا ، واحتمل : أى حمل ، والزبد : ما يعلو وجه الماء حين الزيادة كالخبيب ، وما يعلو القدر عند غليانها ، والرابي : العالى المرتفع فوق الماء الطافي عليه ، والجفاء : ما رمى به الوادى من الزبد إلى جوانبه .

### المعنى الجملى

بعد أن ضرب الله مثل البصير والأعمى للمؤمن والكافر ، ومثل النور والظلمات للإيمان والكفر - ضرب مثلين للحق في ثباته وبقاؤه ، والباطل في اضمحلاله وفنائه .

ثم بين مآل كل من السعداء والأشقياء وما أعد لكل منهما يوم القيامة ، وبين أن حالهما لا يستويان عنده ، وأن الذي يرمى تلك الأمثال ويعتبر بها إنما هو ذو اللب السليم والعقل الراجح والفكر الثاقب .

## الإيضاح

( أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ) أى أنزل من السحاب مطرا فسالت مياه الأودية على حسب مقدارها في الصغر والكبر ، فحمل السيل الذي حدث من ذلك الماء زبدا عاليا مرتفعا فوقه طافيا عليه - وهذا هو المثل الأول الذي ضربه الله للحق والباطل والإيمان والكفر .

( وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ) أى ومن الذي يطرحه الناس في النار من ذهب أوفضة وكذلك من سائر الفلزات كالحديد والنحاس والرصاص - زبد راب كما يطفو على الماء في الأودية زبد مثله ، ويتخذ من الذهب والفضة حلى ، ومن الحديد والرصاص والنحاس وما أشبه ذلك متاع وهو ما يتمتع به الناس كالأواني والقدر وغيرها من آلات الحرث والحصد وأدوات المصانع وأدوات القتال والنزال ، وهذا هو المثل الثاني .

( كذلك يضرب الله الحق والباطل ) أى وما مثل الحق والباطل إذا اجتمعا إلا مثل السيل والزبد ، فكما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار بل يذهب ويضمحل ، فالباطل لا يثبت له ولا دوام أمام الحق ، وقد فصل هذا بقوله .

( فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ) أى فأما الزبد الذي يعلو السيل فيذهب في جانبي الوادى ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء وأما ما ينفع الناس من الماء والذهب والفضة فيمكث في الأرض ، فالماء نشربه ونسقى به الأرض

فثبت جيد الزرع الذى ينتفع به الناس والحيوان ، والذهب والفضة نستعملها فى الخلق وصك النقود ، والحديد والنحاس ونحوهما نستعملها فى متاعنا من الحرث والحصد وفى المعامل والمصانع ووسائل الدفاع ونحو ذلك .

وخلاصة المثالين — إنه تعالى مثل نزول الحق وهو القرآن الكريم من حضرة القدس على القلوب الخالية منه المتفاوتة الاستعداد فى ملاحظته وحفظه ، وفى استذكاره وتلاوته ، وهو وسيلة الحياة الروحية والفضائل النفسية والآداب المرضية — بماء نزل من السماء فى أودية قاحلة لم يكن لها سابق عهد به ، وسال بمقدار اقتضت الحكمة أن يكون نافعا فى إحياء الأرض وما عليها جالبا اسمادة الإنسان والحيوان ، وكذلك جعله حلية تتحلّى بها النفوس وتصل بها إلى السعادة الأبدية ، ومتاعا يتمتع به فى المعاش والمعاد ومثله بالذهب والفضة وسائر الفلزات التى يتخذ منها أنواع الآلات والأدوات وتبقى منتفعا بها رداً طويلا من الزمن .

ومثل الباطل الذى ابتلى به الكفرة لفقده استعدادهم لعمل الخير بما ران على قلوبهم من شرور المعاصى واجتراح الآثام — بالزبد الزابى الذى يطفو على الماء ، أو يخرج من خبث الحديد والنحاس والفضة والذهب ونحوها ويضمحل سريعا ويزول .

وقال الزجاج : مثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان له كمثّل الماء المنتفع به فى نبات الأرض وحياة كل شىء ، ومثّل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر ، لأنها كلها تبقى منتفعا بها ، ومثل الكافر وكفره كمثّل الزبد الذى يذهب جفاء ، ومثّل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذى لا ينتفع به .

( كذلك يضرب الله الأمثال ) أى ومثّل ضربنا لهذه الأمثال البديعة التى توضح للناس ما أشكل عليهم من أمور دينهم وتظهر الفوارق بين الحق والباطل والإيمان والكفر — نضرب لهم الأمثال فى كل باب حتى تستبين لهم طرق الهدى فيسلكوها وطرق الباطل فينحرفوا عنها وتتم لهم سعادة المعاش والمعاد ويكونوا المثل

الغلبا بين الناس : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » .

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشب ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وورعوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ - فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به ونفع به الناس فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » .

وروى أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل القمراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها - فذلك مثلي ومثلكم أنا أخذ بحجزكم عن النار ، هلم عن النار فتغلبوني فتقتحمون فيها » .

وبعد أن بين سبحانه شأن كل من الحق والباطل في الحال والمآل وأتم البيان شرع يبين حال أهلها ما لا ترغيبا فيهما وترهيبا وتكلمة لوسائل الدعوة إلى الحق والخير ، وتنفيرا عن سلوك طرق الباطل والشر فقال :

( للذين استجابوا لربهم الحسنى ) أى للذين أطاعوا الله ورسوله وانقادوا لأوامره وصدقوا ما أخبر به فيما نزل عليه من عنده - المثوبة الحسنى الخالصة من الكدر والنصب ، الدائمة المتقرنة بالتعظيم والإجلال ، والآية بمعنى قوله : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » وقوله : « وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا » .

( والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به ،

أولئك لهم سوء الحساب، ومأواهم جهنم وبئس المهاد) أى والذين لم يطيعوا الله ولم يتشكروا أوامره ولم ينتهوا عما نهوا عنه ، فقد جعل الله لهم ثلاثة أنواع من العذاب والعقوبة .  
 (١) إنهم من شدة ما يرون من العذاب لو استطاعوا أن يجعلوا ما فى الأرض جميعاً ومثله معه فدية لأنفسهم لفعلوا ، فإن الحبوب أولاً لكل إنسان هو ذاته ، وما سواها فيجب لكونه وسيلة إلى مصالحها ، فإذا كان مالكا لهذا العالم كله ولما يساويه جعله فداء لنفسه .

وفى هذا من التهويل الشديد ومن سوء ما يلقاهم فى ذلك اليوم ، ما لا يخفى على من اعتبر وتذكر .

(٢) سوء الحساب ، فيناقشون على الجليل والخير ، وفى الحديث « من نوقش الحساب عذب » ذاك أن كفرهم أحبط أعمالهم ، وارتكابهم للشرور والآثام ران على قلوبهم وجعلها تستمرى العواية والضلالة ، وجههم للدنيا جعلهم يعرضون عما يقربهم إلى الله زلفى فباعوا بالخسران والهوان والنكال .

(٣) إن مأواهم جهنم وبئس المسكن مسكنهم يوم القيامة ، إذ أنهم غفلوا عما يقربهم إلى ربهم وينيلهم القرب من كرامته ، واتبعوا أهواءهم وانغمسوا فى لذاتهم فحقت عليهم كلمة ربك .

ونزل فى حمزة رضى الله عنه وأبى جهل كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى :

( أفن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ) أى لا يستوى من يعلم أن الذى أنزله الله عليك من ربك هو الحق الذى لاشك فيه ولا امتراء . ومن لا يعلم فهو أعمى لا يهتدى إلى خير يفهمه ، ولو فهمه ما انتقاد إليه ولا صدقه ، فيبقى حائراً فى ظلمات الجهل وغياهب الضلالة .

قال قتادة : هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه ، وهؤلاء كمن هو أعمى عن الحق فلا يبصره ولا يعقله اه .

(إنما يتذكر أولوا الألباب) أى إنما يعتبر بهذه الأمثال ويتعظ بها ويصل إلى  
ليتها وسرها إلا أولو العقول السليمة والأفكار الرجيحة .

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ  
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١)  
وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ  
سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢)  
جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ  
وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ  
بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) .

### شرح المفردات

يدرءون : أى يدفعون ، والعدن : الإقامة، يقال عدن بمكان كذا: إذا استقر ،  
ومنه المعدن لمستقر الجواهر ، والدار : هى دار الآخرة .

### المعنى الجملى

بعد أن ضرب الله الأمثال لمن اتبع الحق وسلك سبيل الرشاد ، ولمن ركب  
رأسه وسار فى سبيل الضلالة لايلوى على شىء ولا يقف لدى غاية - بين أن من جمع  
صفات الخير الآتية يكون ممن اتبعوا الحق وملكوا نواحي الإيمان وأقاموا دعائمه ،  
وهؤلاء قد كتب الله لهم حسن العقبى والسعادة فى الدنيا والآخرة .

## الإيضاح

( الذين يوفون بعهد الله ) أى الذين يوفون بما عقده على أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم وفيما بينهم وبين العباد ، وشهدت فطرم في هذه الحياة بصحته ، وأنزل عليهم فى الكتاب إيجابه .

قال قتادة : إن الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق فى بضع وعشرين موضعاً من القرآن عناية بأمره واهتماماً بشأنه .

( ولا ينقصون الميثاق ) أى الميثاق الذى وثقوه بينهم وبين ربهم من الإيمان به ، وبينهم وبين الناس من العقود كالبيع والشراء وسائر المعاملات ، والعهود التى تعاهدوا على الوفاء بها إلى أجل ، وفى الحديث : « آية المنافق ثلاث : إذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب » .

( والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ) أى يصلون الرحم التى أمرهم الله يوصلها فيعاملون الأقارب بالمودة والحسنى ، ويحسنون إلى المحاييج وذوى الخلة منهم بإيصال الخير إليهم ودفع الأذى عنهم بقدر الاستطاعة ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سره أن يبسط فى رزقه ، وأن ينسأ له فى أجله فليصل رحمه » وإنساء الأجل : تأخيره ، وذلك بالبركة له فيه فكأنه قد زاد . ويدخل فى ذلك جميع حقوق الله وحقوق عباده ؛ كالإيمان بالكتب والرسل ، ووصل قرابة المؤمنين بسبب الإيمان ؛ كالإحسان إليهم ، ونصرتهم ، والشفقة عليهم ، وإفشاء السلام ، وعيادة المرضى ، ومراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء فى السفر ، إلى غير ذلك .

أخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن البر والصلة ليخففان سوء الحساب يوم القيامة ثم تلا : والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » .

( ويخشون ربهم ) الخشية : خوف مقرون بالتعظيم والعلم بمن تخشاه ، ومن ثم خص الله بها العلماء بدينه وشرائعه والعالمين بجلاله وجبروته في قوله : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » والمراد أنهم يخشون ربهم ويخافونه خوف مهابة وإجلال .  
( ويخافون سوء الحساب ) أى يحذرون مناقشة الله إياهم الحساب ، وعدم الصفح لهم عن ذنوبهم ، فهم رهبتهم جادون في طاعته ، محافظون على اتباع أوامره وترك نواهيه .

( والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ) العبر : حبس النفس عن نيل ما تحب ، أى والذين صبروا على ما تكرهه النفس ويثقل عليها من فعل الطاعات وترك الشهوات طلبا لرضا ربهم من غير أن ينظروا إلى جانب الخلق رياء وسمعة ، ولا إلى جانب أنفسهم زينة وعجبا .

( وأقاموا الصلاة ) أى أدوها على مارسمه الدين من خشوع القلب واجتناب الرياء والخشية لله ، مع تمام أركانها وهيئاتها احتسابا لوجهه .

( وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ) أى وأنفقوا بعض ما رزقناهم سرا فيما بينهم وبين ربهم ، وعلانية بحيث يراهم الناس ، سواء كان الإنفاق واجبا كالإنفاق على الزوجة والولد والأقارب الفقراء ، أم مندوبا كالإنفاق على الفقراء والمحاويج من الأجانب .

( ويدعون بالحسنة السيئة ) أى ويدفعون الشر بالخير ويجازون الإساءة بالإحسان ، فهو كقوله : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » ومن ثم قال ابن عباس : أى يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم .

( أولئك لهم عقبى الدار ) أى أولئك الذين وصفناهم بتلك المحاسن والكمالات التى بلغت الغاية فى الشرف والكمال - هم الذين لهم عقبى الحسنة فى الدار الآخرة - ثم بين هذه عقبى فقال :

(جنات عدن يدخلونها) أى تلك العقبي هي جنات إقامة يخلدون فيها لا يخرجون منها أبدا .

ثم ذكر ما يكون فيها من الأنس باجتماع الأهل والمحبين الصالحين فقال :  
(ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) أى ويجمع فيها بينهم وبين أحبائهم من الآباء والأزواج والأبناء من عمل صالحا لتقرّبهم أعينهم ويزدادوا سرورا برؤيتهم حتى لقد ورد أنهم يتذاكرون أحوالهم في الدنيا فيشكرون الله على الخلاص منها .

وفي الآية إيماء إلى أنه في ذلك اليوم لا تجدى الأنساب إذا لم يسعفها العمل الصالح ، فالآباء والأزواج والذرية لا يدخلون الجنة إلا بعملهم ، وقد أشار إلى ذلك الكتاب الكريم : «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أُنِيَ اللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»  
وفي الحديث إن النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مرض موته قال لفاطمة : «يا فاطمة بنت محمد سليني من مالى ما شئت لأعفي عنك من الله شيئا» .

ثم ذكر ما لهم من الكرامة فيها بتسليم الملائكة عليهم فقال :  
(والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) أى وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهنا للتسليم عليهم والتهنئة بدخول الجنة والإقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام .

(سلام عليكم بما صبرتم) أى قائلين لهم : أمان عليكم من المكاره والخاوف التى تحيق بغيركم ، بما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه والآلام التى لاقيتموها في دار الحياة الدنيا .

(فنعمة عقبي الدار) أى فنعمة عاقبة الدنيا الجنة .  
أخرج ابن جرير «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : سلام عليكم بما صبرتم فنعمة عقبي الدار ، وكذا كان يفعل أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم» .

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ  
 أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ  
 الدَّارِ (٢٥) .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر أوصاف المتقين وما أعد لهم عنده في دار الكرامة بما كان لهم من كريم الصفات وفاضل الأخلاق - بين حال الأشقياء وما ينتظرهم من العذاب والنكال ، وأتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب على سنة القرآن الدائمة في مثل هذا . « تَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

### الإيضاح

وصف سبحانه الأشقياء بصفات هي السبب في خسراتهم :

(١) ( والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ) أى ينقضون عهد الله الذى أزمه عباده بما أقام عليه من الأدلة العقلية كالتوحيد والقدرة والإرادة والإيمان . بالأنبياء والوحى ونحوها ، ونقضه إما بالأى ينظروا فيه فلا يمكنهم العمل بموجبه ، وإما بأن ينظروا فيه ويعلموا صحته ثم هم بعد يماندون فيه ولا يعملون بما علموه واعتقدوا صحته ، وقوله : من بعد ميثاقه أى من بعد اعترافهم به وإقرارهم بصحته .

(٢) ( ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ) من الإيمان به وبجميع أنبيائه الذين جاءوا بالحق ، فآمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض وقطعوا الرحم وكانوا حرباً على المؤمنين وعونا للكافرين ، ومنعوا المساعدات العامة التى توجب التآلف والمودة بين المؤمنين كما جاء فى الحديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وجاء أيضاً : « المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو اشتكى باقى الأعضاء بالسهر والحمى » .

(٣) (ويفسدون في الأرض) بظلمهم لأنفسهم وظلمهم لغيرهم بإبتزاز أموالهم واغتصابها بلا حق ، وتهيج الفتن بين المسلمين وإثارة الحرب عليهم ، وإظهار العدوان لهم .

ثم حكم عليهم بما يستحقون بما دسوا به أنفسهم فقال :

(أولئك لهم اللعنة) أى أولئك الذين اتصفوا بهذه الخمازي وسىء الصفات ، لهم بسبب ذلك الطرد من رحمة ربهم ورضوانه ، والبعد من خيرى الدنيا والآخرة .  
(ولهم سوء الدار) أى ولهم سوء العاقبة وهو عذاب جهنم جزاء وفاقلا اجترحوه من السيئات وأتوه من الشرور والآثام .

اللَّهُ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا  
أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنْ أَلَّ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ  
أَنْابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ  
تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ  
مَا أَتَى (٢٩) .

### شرح المفردات

يقدر : يضيق كقوله « وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » أى ضيق والمراد أنه يعطيه بقدر كفايته لا يفيض عنه شيء ، متاع : أى متعة قليلة لا دوام لها ولا بقاء ، وأناب : أى رجع عن العناد وأقبل على الحق ، وتطمئن : أى تسكن وتخشع ، وطوبى لهم : أى لهم العيش الطيب وقرة العين والغبطة والسرور ، والمآب : المرجع والمنقلب .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من تقض عهد الله من بعد ميثاقه ولم يقرّ بوحدانيته وأنكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهو ملعون في الدنيا ومعذب في الآخرة - بين هنا أنه تعالى يبسط الرزق لبعض عباده ويضيقه على بعض آخر على ما اقتضته حكمته وسابق علمه بعباده ، ولا تعلق لذلك بإيمان ولا كفر ، وربما وسع على الكافر استدراجاً له ، وضيّق على المؤمن زيادة في أجره ، ثم ذكر مقالة لهم كثر في القرآن ترداها وهي طلبهم منه آية تدل على نبوته لإنكارهم أن يكون القرآن آية دالة على ذلك ، ثم ذكر حال المؤمنين المتقين ومآلهم عند ربهم في جنات تجري من تحتها الأنهار .

## الإيضاح

( الله يبسط الرزق لمن يشاء ) أى الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ممن هو حاذق في جمع المال وله من الحيلة في الحصول على كسبه واستنباطه بشتى الوسائل ما ينحى على غيره ، ولا علاقة لهذا بإيمان وكفر ولاصلاح ومعصية .  
( ويقدر ) على من يشاء ممن هو ضعيف الحيلة في كسبه ، وليس بالحوّل القلب في استنباط أسبابه ووسائله ، وما الغنى والفقر إلا حالان يمران على البرّ والتاجر كما يمر عليهما الليل والنهار والصبح والمساء .

ثم ذكر أن مشركى مكة بطروا بغناهم فقال :

( وفرحوا بالحياة الدنيا ) أى وفرح الذين نقضوا العهد والميثاق يبسط الرزق في الحياة الدنيا وعدّوه أكبر متاع لهم وأعظم حظوة عند الناس .  
ثم بين لهم خطأهم فقال :

( وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع ) أى وما نعيم الدنيا إذا قيس على نعيم الآخرة إلا نزر يسير سريع الزوال فهو كعجالة الراكب وزاد الراعى ، فلا حق

لهم في البطر والأشر بما أوتوا من حظوظها وانتقموا به من خيراتها ، فهم قد اعتزوا بالقليل السريع الزوال .

أخرج الترمذى عن المستورد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبه هذه في اليمّ فلينظر يم يرجع ، وأشان بالسبابة » . وأخرج الترمذى وصححه عن ابن مسعود قال : « نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر في جنبه ، فقلنا يارسول الله لو اتخذنا لك ، فقال ما لي وللدنيا ، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » .

ولما أبان أنهم قد اتخذوا بالسراب ، واكتفوا بالحباب ، ذكر ما ترتب على ذلك الغرور من اقتراحهم على رسوله صلى الله عليه وسلم الآيات فقال :

( ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ) أى ويقول الذين كفروا من أهل مكة كعبد الله بن أبى وأصحابه ، هلا أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم آية كما أرسل على الأنبياء والرسل السابقين كسقوط السماء عليهم كسفا ، أو تحويل الصفا ذهبا ، أو إزاحة الجبال من حول مكة حتى يصير مكانها مروجاً وبساتين إلى نحو أولئك من الاقتراحات التى حكها القرآن عنهم كقولهم : « قُلْيَاتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ » وكانهم لفرط عنادهم وعظيم مكابرتهم قد ادعوا أن ما أتى به من باهر الآيات كالقرآن وغيره ليس عندهم من الآيات التى توجب الإذعان والإيمان أو التى لا تقبل شكاً ولا جدلاً .

ثم أمر رسوله أن يبين لهم أن إنزال الآيات لادخل له فى هداية ولا ضلال بل الأمر كله بيده .

( قل إن الله يضل من يشاء ويهتدى إليه من أناب ) أى إنه لا فائدة لسكم فى نزول الآيات إن لم يرد الله هدايتكم فلا تسفلوا أنفسكم بها ، ولكن تضرعوا إليه واطلبوا منه الهداية ، فإن الضلال والهداية بيده وإليه مقاليدها ، وادعوه أن يهتدى .

لكم من أمره رشداً ، وأن يهدى لكم وسائل النجاة والسعادة ، ويدفع عنكم نزغات الشيطان ووساوسه لتظفروا بالحسنى في الدارين .

والخلاصة — إن في القرآن وحده غنى عن كل آية ، فلو أراد الله هدايتكم بصرف اختياركم إلى تحصيل أسبابها وكان لكم فيه مرشد أيما مرشد ، ولكن الله جعلكم سادرين في الضلالة لاتلون على شيء ، ولا ينفعكم إرشاد ولا نصح ، لسوء استعدادكم وكثرة لجأكم وعنادكم ، ومن كانت هذه حاله فأنتي له أن يهتدى ولو جاءته كل آية؟ كما قال : « وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » وقال : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » وقال : « وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ » .

أما من أقبلوا إلى الله وتأملاوا في دلائله الواضحة ، وسلكوا طرقه المعبدة ، فآله ينير بصائرهم ويشرح صدورهم ، وهم لا يبدوا ضلون إلى الفوز بالحسنى ، وحاصلون على السعادة في الدنيا والآخرة ، وهم من أشار إليهم بقوله :

( الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ) أى هم الذين آمنوا وركنت قلوبهم إلى جانب الله وسكنت حين ذكره ، وإذا عرض لهم الشك في وجوده ظهرت لهم دلائل وحدانيته في آيات وعجائب الكائنات ، فرضى به مولى ورضى به نصيرا ، ومن ثم قال :

( ألا بذكر الله تطمئن القلوب ) أى ألا بذكر الله وحده تطمئن قلوب المؤمنين ويزول القلق والاضطراب من خشيته ، بما يفيضه عليها من نور الإيمان الذى يذهب الملح والوحشة ، وهى بمعنى قوله في الآية الأخرى : « ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » .

فالمؤمنون إذا ذكروا عقاب الله ولم يأمِنوا من وقوعهم في المعاصي وجلت قلوبهم كما قال : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ » وإذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت نفوسهم واطمأنت إلى ذلك الوعد وزال منها القلق والوحشة .

وفي الآية إيماء إلى أن الكفار أفئدتهم هواء إذ لم تسكن نفوسهم إلى ذكره ، بل سكنت إلى الدنيا وركنت إلى لذاتها .

ثم بين سبحانه جزاء المظلمين وثوابهم فقال :

( الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنَ مَا أَجْرُ الْوَالِدِينَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمُ الْفِرْحُ وَوَقرة العَيْن عند ربهم وحسن المآب والمرجع .  
وفي هذا من الترغيب في طاعته والتحذير من معصيته ومن شديد عقابه ما لا يخفى فيه .

وخلاصة ذلك — إن أهل الجنة منعمون بكل ما يشتهون كما جاء في الحديث :  
« فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ الْمَوْتَى ، بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ، أَلَمْ يَجْعَلِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرَسُولٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ

لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى  
 كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا  
 لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيَّظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ  
 وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي  
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤)

### شرح المفردات

خلات: مضت ، متاب: مرجعي ، قطعت : شققت ، بيأس : يعلم وهو لغة هوازن ،  
 قارعة رزية تفرع القلوب ، أمليت : أى أهملت مدة طويلة فى أمن ودعة ، قائم :  
 رقيب ومتول للأمر ، تنبئونه : تخبرونه ، بظاهر من القول : أى بباطل منه لإحتمية  
 له فى الواقع ، والسبيل : هو سبيل الحق وطريقه ، والواقى : الحافظ .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه طلبهم من رسوله صلى الله عليه وسلم الآيات كما أنزل على  
 الرسل السالفين موسى وعيسى وغيرهم من النبيين والمرسلين ، وبين أن الهدى هدى  
 الله ، فلو أوتوا من الآيات ما أوتوا ولم يرد الله هدايتهم فلا يجدهم ذلك فتبلا ولا قطميرا ،  
 ذكر هنا أن محمدا ليس ببدع من الرسل وأن قومه سبقهم أقوام كثيرون وطلبوا  
 الآيات من أنبيائهم وأجابوهم إلى ما طلبوا ولم تنههم الآيات والنذر فكانت عاقبتهم  
 البوار والنكال ، فأنزل على كل قوم من العذاب ما أتى عليهم جميعا وأصبحوا معه  
 كأس الدابر؛ ولو أن كتابا تسير به الجبال عن أما كتبها أو تشقق به الأرض فتجعل  
 أنهارا وعيونا لكان هذا القرآن الذى أنزلناه عليه ، ثم أبان أن الله تعالى قادر  
 على الإتيان بما اقترحوه لكنه لم يرد ذلك لأنه لا ينتج المقصود من إيمانهم .

ثم أتبع ذلك بالتيئيس منه وبالتهديد بقارعة تحمل بهم ، وبتسليمه النبي صلى الله عليه وسلم على استهزائهم به .

أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الشعبي قال : قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كنت نبيا كما تزعم فباعد جبلي مكة أخشيها (اسمها الجبلين) هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة ، فإنها ضيقة حتى نزرع فيها ونرعى ، وابتعت لنا آباءنا من الموقى حتى يكلمونا ويخبرونا أنك نبى ، أو احملنا إلى الشام أو اليمن أو إلى الحيرة حتى نذهب ونجىء فى ليلة كما زعمت أنك فعلته فنزلت هذه الآية .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس أنهم قالوا : سئير بالقرآن الجبال ، قطع بالقرآن الأرض ، أخرج به موتانا ، فنزلت .

## الإيضاح

( كذلك أرسلناك فى أمة قد دخلت من قبلها أمة لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك ) أى كما أرسلنا إلى الأمم الماضية رسلا فكذبوهم ، كذلك أرسلناك فى هذه الأمة لتبليغهم رسالة الله إليهم ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأوثك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم .

وخلاصة ذلك — إننا كما أرسلنا إلى أم من قبلك وأعطيناهم كتبنا تتلى عليهم ، كذلك أرسلناك وأعطيناك هذا الكتاب لتتلوه عليهم ، فلماذا يقترحون غيره ؟ .  
( وهم يكفرون بالرحمن ) أى وحالهم أنهم كفروا بمن أحاطت بهم نعمه ، ووسعت كل شىء رحمته ، ولم يشكروا نعم فضله عليهم ولا سبوا إحسانه إليهم بإرسالك . وإنزال القرآن عليك وهو الكفيل بمصالح الدنيا والآخرة كما قال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » .

وكفروهم به أنهم جحدوه بتاتا أو أثبتوا له الشركاء .

( قل هو ربي لا إله إلا هو ) أى قل لهم : إن الرحمن الذى كفرتم به هو خالق ومتولى أمرى ومبلغى مراتب الكمال . لا رب غيره ولا معبود سواه ، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . وعن قتادة قال : « ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية حين صالح قريشا كتب فى الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم . فقالت قريش أما الرحمن فلا نعرفه ، وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ، فقال أصحابه دعنا نقاتلهم ، قال لا ، اكتبوا كما يريدون » اهـ .

( عليه توكلت ) أى عليه لا على غيره توكلت فى جميع أمورى ولا سيما فى نصرتى عليكم .

( وإليه متاب ) أى وإليه وحده توبتى ، وهو بمعنى قوله : « وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ » وفى هذا بيان لفضل التوبة ومقدار عظمتها عند الله ، وبعث للكفار على الرجوع عما هم عليه بأبلغ وجه وألطف سبيل ، إذ أمر بها عليه السلام وهو منزه عن إقرار الذنوب فتوبتهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصى أحق وأجدر .

( ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ) أى ولو ثبت أن كتابا سيرت بتلاوته الجبال وزعزعت من أما كتبها كما فعل بالطور لموسى عليه السلام .

( أو قطعت به الأرض ) أى شققت وجعلت أنهارا وعيوننا كما حدث للحجر حين ضرب به موسى بعصاه .

( أو كلم به الموتى ) أى أو كلم أحد به الموتى فى قبورهم بأن أحييهم بقراءته فتكلم معهم بعد كما وقع لعيسى عليه السلام - لو ثبت هذا الشيء من الكتب لثبت لهذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لما انطوى عليه من الآيات الكونية الدالة على بديع صنع الله فى الأنفس والآفاق ، واشتمل عليه من الحكم والأحكام التى فيها صلاح البشر وسعادتهم فى الدار الفانية والدار الباقية ، ومن قوانين العمران التى تكون خيرا لمتبعيها وفوزا لساكنيها ، وتجعل منهم خيرا أمة

أخرجت للناس ، وهذا بمعنى قوله : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » .

وخلاصة ذلك — لو أن ظهور أمثال ما اقترحوه مما تقتضيه الحكمة وتستدعيه

المصلحة ، لكان مظهر ذلك هو القرآن الذي لم يمدوه آية واقترحوا غيره .

ولا يخفى ما في هذا من تعظيم شأنه الكريم ، ووصفهم بسخف العقل وسوء

التدبير والرأى ، وبيان أن تلك المقترحات لا ينبغي أن يؤبه لها ولا يلتفت إليها ،

لأنها صادرة عن التشهى والهوى والتماذى فى الضلال والمكابرة والعدا ، لاعن تقدير

للأمور على وجهها الصحيح وتأمل فى حقاقتها وما يجب أن يكون لها من الاعتبار .

ويجوز أن يكون المعنى — لو أن كتابا فعلت بوساطته هذه الأفاعيل العجيبة

لما آمنوا به لفرط عنادهم وغلوهم فى مكابرتهم ، وهذا بمعنى قوله : « وَلَوْ أَنَّ نَزَّلْنَا

إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيَوْمِهِمْ

إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » .

( بل لله الأمر جميعا ) أى بل مرجع الأمور كلها بيد الله ، ما شاء كان وما لم

يشأ لم يكن ، ومن يضل فلا هادى له ، ومن يهد فما له من مضل .

وخلاصة ذلك — إن الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات ، لكن

الإرادة لم تتعلق بذلك لعله أن قلوبهم لا تلتين ولا يجدى هذا فائدة فى إيمانهم .

( أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ) أى ألم يعلم الذين

آمنوا أن الله تعالى لو شاء هداية الناس أجمعين لهداهم ، فإنه ليس ثمة حجة ولا معجزة

أنجح فى العقول من هذا القرآن الذى لو أنزل على جبل لرأيت خاشعا متصدعا من

خشية الله ، لكنه لم يشأ ذلك .

روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبي إلا وقد

أوتى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن

أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » يريد أن كل نبي اقترضت معجزته بموته ، وهذا القرآن حجة باقية على وجه الدهر لاتنقض عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ولا يشبع منه العلماء .

( ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ) أى ولا يزال الكافرون تصيبهم البلايا والرايا من القتل والأسر والسلب والنهب بسبب تماديهم فى الكفر وتكذيبهم لك وإخراجك من بين أظهرهم .

( أو تحل قريبا من دارهم ) أى أو تحل تلك القارعة قريبا من دارهم فيفزعون منها ويتطايروا شررها إليهم .

( حتى يأتى وعد الله ) أى حتى ينجز الله وعده الذى وعده فىهم بظهورك عليهم وفتحك أرضهم وقهرك إياهم بالسيف .

( إن الله لا يخلف الميعاد ) أى إن الله منجز ما وعده من النصر عليهم ، لأنه لا يخلف وعده كما قال : « فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخَلِّفًا وَعْدَهُ رُسُلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ » .

ولما كان الكفار يسألون النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآيات على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك يشق عليه ويتأذى من تلك الكلمات أنزل الله تسليمة له على سفاهة قومه قوله :

( ولقد استهزىء برسلى من قبلك ) أى إن يستهزىء بك هؤلاء المشركون من قومك ويطلبوا منك الآيات تكذيبا لما جئتهم به فاصبر على أذاهم وامض لأمر ربك فلقد استهزأت أمم من قبلك برسلكم .

ثم بين شأنه مع المكذبين فقال :

( فأمليت للذين كفروا ) أى فتركهم ملاوة أى مدة من الزمان فى أمن ودعة كما يعلى للبهيمة فى المرعى .

(ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) أى ثم أحلت بهم عذابي ونعمتي حين تبادوا  
 فى غيرهم وضلالهم ، فانظر كيف كان عقابي إيّاهم حين عاقبتهم - ألم أذقهم ألم  
 العذاب ، وأجعلهم عبرة لأولى الألباب ؟ .

وقد صدق الله وعده ونصر رسوله على عدوه ، فدخل فى دين الله من دخل  
 ومن أبى قتل ، ودانت العرب كلها له وانضوت تحت لوائه وحقت عليهم كلمة ربك .  
 وفى هذا تعجب مما حل بهم ودلالة على شدته وفضاعة أمره كما لا يخفى .

ثم ذكر سبحانه ما يجرى مجرى الحجاج عليهم وما فيه توبيخ لهم وتعجيب  
 من عقوبهم ، وكيف إنها وصلت إلى حد لا ينبغى لماعقل أن يقبله ولا يرضى به فقال :  
 ( أمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ) أى أفن هو قائم بحفظ أرزاق الخلق  
 ومتولى أمورهم وعالم بهم وبما يكسبونه من الأعمال من خير أو شر ولا يعزب عنه  
 شئ - كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التى لاتسمع ولا تبصر ولا تدفع عن  
 نفسها ولا عن يعبدها ضرا ولا تجلب لهم نفعا .

وخلاصة ذلك - إنه لا عجب من إنكارهم لآياتك الباهرة مع ظهورها ، وإنما  
 العجب كل العجب من جعلهم القادر على إنزالها المجازى لهم على إعراضهم عن تدبر  
 معانيها - بقوارع تترى واحدة بعد أخرى يشاهدونها رأى العين - كمن لا يملك لنفسه  
 نفعا ولا ضرا فضلا عن اتخاذ ربا يرجى نفعه أو يخشى ضرره .

ونحو الآية قوله : « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا » وقوله : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ  
 فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ »  
 وقوله : « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .  
 ثم أكد هذا بقوله :

( وجعلوا لله شركاء ) عبدوها معه من أصنام وأوثان وأنداد

ثم أعقب ذلك بتوبيخ إثر توبيخ فقال :

( قل سموهم ) أى صفوهم فهل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة ، وقد يكون المعنى سموهم من هم وما أسماؤهم ؟ فإنهم ليسوا ممن يذكر ويسمى ، وإنما يسمى من ينفع ويضر .

( أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض ) أى بل أتخبرونه بشركاء يستحقون العبادة لا يعلمهم ، أو تخبرونه بصفات لهم يستحقون لأجلها العبادة وهو لا يعلمها ، وفى هذا نفي لوجودها لأنها لو كانت موجودة لعلمها لأنه لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

( أم بظاهر من القول ) أى بل أتسمونهم شركاء ظنا منكم أنها تنفع وتضر ، كما تسمونهم آلهة كما قال : « إِنَّ هِيَ إِلَّا الْأَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى » .

وخلاصة حجاجه على المشركين — نفي الدليل العقلى والدليل النقلى على أحقية عبادتها — فبعد أن هدم قاعدة الإشراك بقوله : ( أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ) زاد ذلك إيضاحا فقال : وليتهم إذ أشركوا بربهم الذى لا ينبغي أن يشرك به — أشركوا به من له حقيقة واعتبار ومن ينفع ويضر ، لامن لا اسم له فضلا عن المسمى ، بل من لا يعرف له وجود فى الأرض ولا فى السماء ، ويريدون أن ينبئوا عالم السر والنجوى بما لا يعلمه ، ثم زاد على ذلك فقال : وما تلك التسمية إلا بظاهر من القول من غير أن يكون تحتها ظاهرا وماهى إلا أصوات جوفاء كثيرة المباني خالية من المعانى .

( بل زين للذين كفروا مكرهم ) أى دع هذا الحجاج وألق به جانبا فإنه لا فائدة فيه ، لأنه زين لهم كيدهم لاستسلامهم للشرك وتماديهم فى الضلال .  
( وصدوا عن السبيل ) أى وصدوا عن سبيل الحق بما زين لهم من صحة ما هم عليه .

( وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ) أى ومن يخذله الله لسوء اعتقاده وفساد أعماله . واجترأه للأثام والمعاصى فلا هادى له يوفقه إلى النجاة ويوصله إلى طرق السعادة . ونحو الآية قوله : « وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » وقوله : « إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » . ثم بين عاقبة أمرهم فقال :

( لهم عذاب فى الحياة الدنيا ) أى لهم عذاب شاق فى هذه الحياة بالقتل والأسر وسائر الآفات التى يصيبهم بها .

( ولعذاب الآخرة أشق ) أى ولتعذيب الله إياهم فى الدار الآخرة أشد من تعذيبه إياهم فى الدنيا وأشق لشدته ودوامه .

ثم أياهم من صرف العذاب عنهم فقال :

( وما لهم من الله من واق ) أى وما لهم حافظ يعصمهم من عذاب الله ، إذ لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ولا يأذن لأحد فى الشفاعة لمن كفر به ومات على كفره .

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ، قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ، وَلَنْ تُبْعَثَ أَهْوَاءُهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ

اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ  
الْكِتَابِ (٣٩) .

### شرح المفردات

المثل : الصفة والنعمة ، والأكل : مايؤكل ، والظل : واحد الظلال والظلول .  
والأطلال ، والأحزاب : واحدهم حزب ، وهو الطائفة المنتزعة أى المجتمعة لشأن  
من الشؤون كحرب أو عداوة أو نحو ذلك ، والمآب : المرجع ، والواقى : الحافظ ،  
والأجل : الوقت والمدة ، والكتاب : الحكم المعين الذى يكتب على العباد على  
حسب ما تقتضيه الحكمة ، والمحو : ذهاب أثر الكتابة ، وأم الكتاب : أصله  
وهو علم الله تعالى .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعده للكافرين من العذاب والنكال فى الدنيا والآخرة -  
أتبعه بذكر ثواب للمتقين فى جنات تجري من تحتها الأنهار ، ثم أرفده بذكر فرح  
المؤمنين من أهل الكتاب بما أنزل عليه من ربه ، وإنكار بعض منهم لذلك ، ثم حث  
الرسول صلى الله عليه وسلم على القيام بحق الرسالة وتحذيره من مخالفة أوامره ، ثم ختم  
هذا بذكر الجواب عن شبهات كانوا يوردونها لإبطال نبوته صلى الله عليه وسلم  
كقولهم : إنه كثير الزوجات ، ولو كان رسولا من عند الله لما اشتغل بأمر النساء .

وخالصة الجواب -- إن محمدا ليس ببدع من الرسل ، فكثير منهم كان له أزواج  
وذرية ولم يقدح ذلك فى رسالتهم ، وكقولهم : إنه لو كان رسولا من عند الله لم يتوقف  
فيما يطلب منه من المعجزات ، فأجيبوا بأن أمر المعجزات مفوض إلى الله إن شاء  
أظهرها وإن شاء لم يظهرها ، ولا اعتراض لأحد عليه ، وقولهم : إن ما نخوفنا به من  
العذاب وظهور النصره له ولقومه لم يتحقق بعد فليس بنبي ولا صادق فيما يقول ،

فأجيبوا عن ذلك بقوله : لكل أجل كتاب : أى إن لكل حادث وقتاً معيناً لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، فتأخر المواعيد لا يدل على ما تدعون .

## الإيضاح

( مثل الجنة التى وعد المتقون ) أى فيما نقصه عليك صفة الجنة التى وعد الله لمتقين وأعطاهم إياها كفاء إخبارهم له وإنابتهم إليه ودعائهم إياه مخلصين له الدين لا شريك له .

( تجرى من تحتها الأنهار ) سارحة فى أرجائها وجوانبها يصرفونها كيف شاءوا وأين أرادوا .

( أكلها دائم ) أى فيها الفواكه والمطاعم والمشارب التى لا تنقطع عنهم ولا تبذل . ( وظلها ) كذلك ، فليس هناك حر ولا برد ولا شمس ولا قر ولا ظلمة كما قال تعالى : « لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا » .

وبعد أن وصف الجنة بهذه الصفات الثلاث - بين أنها مآل المتقين ومنتهى أمرهم فقال :

( تلك عقبي الذين اتقوا ) أى هذه الجنة عاقبة من اتقوا ربهم فأقلعوا عن الكفر والمعاصى واجتراح السيئات ، وعنت وجوههم للحى القيوم وخافوا يوماً تشيب من هوله الولدان وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

ثم بين عاقبة الكافرين بعد ما بين عاقبة المتقين فقال :

( وعقبى الكافرين النار ) أى وعاقبة الكافرين بالله النار ، بما اقترفوا من الذنوب وذنسوا به أنفسهم من الآثام .

وفى الآية فتح باب الطمع على مضراعيه للمتقين ، وإقفاله بالرئاج على الكافرين .

ثم بين أن أهل الكتاب انقسموا فئتين : فئة فرحت بنزول القرآن وفرقة أنكرته

وكفرت ببعضه فقال :

(والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به كما قال تعالى: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» وهم جماعة ممن آمن من اليهود كهبد الله ابن سلام وأصحابه، ومن النصارى وهم ثمانون رجلا من الحبشة واليمن ونجران.

(ومن الأحزاب من ينكث بعضه) أى ومن جماعتهم الذين تجزوا وتألبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة ككعب بن الأشرف والسيد والعاقب أسقفي نجران وأشياعهم - من أنكث بعض القرآن وهو مالم يوافق ما حرفوه من كتبهم وشرايعهم.

ولما ذكر سبحانه اختلاف أهل الكتاب في شأنه صلى الله عليه وسلم - بين بايجاز ما يحتاج إليه المرء ليفوز بالسعادتين فقال:

(قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) أى قل لهم صادعا بالحق ولا تتكرث بمن ينكره: إني أمرت فيما أنزل إليّ بأن أعبد الله وحده ولا أشرك به شيئا سواه، وذلك ما لا سبيل إلى إنكاره وأطبقت عليه الشرائع والكتب كما قال: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا» وذلك ما دلت الدلائل التي في الآفاق والأنفس على وجوب الإذعان له والاعتراف به. وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

(إليه أَدْعُو) أى إلى طاعته وإخلاص العبادة له وحده أَدْعُو الناس.

(وإليه مآب) أى وإليه وحده مرجع ومصير ومصيركم للجزاء، ولا خلاف بيننا في هذا، فالعجب لكم أن تنكروا المتفق عليه وتختلفوا فيما لا محل للخلاف فيه.

وهذه الآية جامعة لشؤون النشأة الأولى والآخرة، فقوله: (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) توحى إلى ما جاء به التكليف، وقوله (إليه أَدْعُو) تشير إلى مهام الرسالة، وقوله: (وإليه مآب) تشير إلى البعث والجزاء للحساب يوم القيامة.

ثم بين سبحانه أنه أرسل رسوله بلغة قومه كما أرسل من قبله رسلا بلغات أقوامهم فقال :

( وكذلك أنزلناه حكما عربيا ) أى وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب ، أنزلنا عليك القرآن حكما عربيا بلسانك ولسان قومك ليسهل عليهم تفهيم معناه واستظهاره . وسمى القرآن حكما : أى فصلا للأمر على وجه الحق - لأن فيه بيان الحلال والحرام وجميع ما يحتاج إليه المسكتون ليصلوا إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وقد جاء بمعنى الآية قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » .

ثم إن أهل مكة دعوه إلى أمور يشاركون فيها فقال :

( ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم ) أى ولئن اتبعت أهواء هؤلاء الأحزاب ابتغاء رضاهم كأن توجه إلى قبلتهم وعدم مخالفتهم فى شىء مما يعتقدونه . ( مالك من الله من ولى ولا واق ) أى ليس لك من دون الله ولى ولا ناصر ينصرك فينقذك منه إن هو أراد عقابك ، ولا واق يقيق عذابه إن هو عذبك ، فاحذر أن تتبع أهواءهم وتتهيج بهجهم وقد تقدم أن مثل هذا من وادى قولهم : ( إياك أعنى واسمعى يا جاره ) فهو إنما جاء لقطع أطاع الكافرين وتهيج المؤمنين على الثبات فى الدين لا للنبى صلى الله عليه وسلم فهو بمكان لا يحتاج فيه إلى باعث ولا مبهيج . وتزل : لما عابت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثرة النساء ، فقالوا لو كان نبيا كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء .

( ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ) أى وكما أرسلناك رسولا بشرى ، كذلك بعثنا المرسلين قبلك بشرى بأن يكون الطعام ويمشون فى الأسواق ويأتون الزوجات ويولد لهم .

أوفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أما أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .  
وقد كان من حكمة تعدد زوجاته أمهات المؤمنين أن اطلعن منه على الأحوال الخفية التي تكون بين الرجل والمرأة . وعلمن منه أحكامها ونشرتها بين المؤمنين ، وناهيك بأمر المؤمنين عائشة وفيها يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « خذوا نصف دينكم عن هذه الخيراء » ومن ثم كانت أكثر من حدث عن رسول الله بعد أبي هريرة وأكثر من حدث عن شمائله وأخلاقه في السر والعلن ، ومنها علم المسلمون كثيرا من أحكام دينهم ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يختلفون إليها للحديث والغتيا وكانت تمناجهم وتجاهدهم وتلزمهم الحجة ولا يجحدون معدلا عن التسليم برأيها .  
وروي أن المشركين طعنوا في نبوته لعدم إتيانه بما يقترحونه من الآيات فنزل قوله :

( وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ) أى وما كان في وسع رسول من الرسل أن يأتي من أرسل إليهم بمعجزة يقترحونها إلا متى شاء الله وعلم أن في الإتيان بها حكا ومصالح لعباده ، وقد جاء من الآيات بما فيه عبرة لمن اعتبر وغناء لمن تفكر وتدبر ، ولكنهم أبوا إلا التماذى في الغواية والضلال كما تقدم من مقال عبد الله ابن أبي أمية .

والآيات المقترحة لاتأتى إلا على مقتضى الحكمة في أزمان يعلمها الله ، وقد جعل لكل زمن من الأحكام ما فيه الصلاح والخير للناس ، ولا صلاح فيما اقترحوه ، وهل من الصلاح أن يرضع المراهق اللبن من ظئرهِ أو أن يجعل له مهد ينام فيه ؟ كذلك لاحكمة في إنزال الآيات التي اقترحوها ، وهذا إيضاح قوله :

( لكل أجل كتاب ) أى لكل كتاب أجل أى لكل أمر كتبه الله أجل معين ووقت معلوم ، فلا آية من المقترحات بنازلة قبل أوانها ، ولا عذاب مما خوفوا به محاصل في غير وقته ، ولا نبوة بحاصلة في غير الزمان المقدر لها ، فوسى وعيسى

ومحمد عليهم السلام جاءوا في أزمنة رأى الله الصلاح في وجودهم فيها لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون ، وهكذا انقضاء أعمار الناس ووقوع أعمالهم وآجالهم ، كلها كتبت في آجال ومدد معينة لانقديم فيها ولا تأخير ونحو الآية قوله ( **إِكُلُّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرًّا** ) .

فما مثل الدنيا من كواكبها وشمسها وأرضها وزرعها إلا مثل مصنع رتبت أعماله ووضعت عماله في حجر معينة ووزع بينهم العمل على نظم خاصة في أوقات معينة ولهم مناهج يتبعونها فتراهم كل يوم يعملون وينصرفون من أما كتبهم ثم يغفدون إليها على نهج لا يتغير ولا يتبدل ، فالدنيا قد جعل الله لها نظاما على مقتضى الحقائق الثابتة التي تعلق بها علمه ، وعلى هذا النظام جرت الشمس والقمر والكواكب وظهر النبات والحيوان وتعاقب الموت والحياة ، وظهرت نجوم وفيت أخرى ونبت زرع وحصد آخر ومات نبي وقام آخر وامتد دين وانتشر وتخلص دين ونسخ .

وكل كوكب من الكواكب التي تصلح للحياة كأرضنا كأنه صحيفة يكتب فيها ويمحي ، وذلك تابع لما في المنهج الأصلي ، ومن ثم تعاقب الأمم والأجيال والدول والنظم على قطر كعصر فيتعاقب عليه قدماء المصريين واليونان والرومان ، ولا شك أن كل هذا محو وإثبات على مقتضى المنهج المرسوم ، وهكذا تنسخ آية من القرون ويؤتى غيرها كما ينسخ زرع بزراع وليل بنهار ، وقوم بقوم ، ودين نبي بآخر في ميقاته المعين في علمه تعالى ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

( **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ** ) وقد أثر عن أئمة السلف فيها أقوال لاتناقض فيها

بل هي داخلة فيما سلف :

- (١) قال الحسن : يمحو الله من جاء أجله ويثبت من بقى أجله .
- (٢) وقال عكرمة : يمحو الله القمر ويثبت الشمس .
- (٣) وقال الربيع : يقبض الله الأرواح حين النوم فيميت من يشاء ويمحوه ويرجع من يشاء فيثبته .
- (٤) وقال السدي : يمحو الله القمر ويثبت الشمس .

(٥) وقال آخرون : يحو الله ما يشاء من الشرائع بالنسخ ويثبت ما يشاء فلا ينسخه ولا يبده .

(٦) وقال آخر : يحو الله الحن والمضايب بالدعاء .  
(وعنده أم الكتاب ) هو علم الله ، وجميع ما يكتب في صحف الملائكة لا يقع حتما يقع إلا موافقا لما يثبت فيه فهو أم لذلك فكأنه قيل يحو ما يشاء محوه ويثبت ما يشاء وهو ثابت عنده في علمه الأزلي الذي لا يكون شيء إلا على وفق ما فيه .

وَإِنَّمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ  
الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُضُهَا مِنْ  
أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ  
مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ  
وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقِبِيَ الدَّارُ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا  
قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) .

### شرح المفردات

الأطراف : الجوانب ، المعقب : الذي يكرر على الشيء فيبطئه ، ويقال لصاحب الحق معقب لأنه يقنو غيره بالاعتضاء والطلب ، والمسكر : إرادة المكروه في خفية ، وعقبي الدار : أي العاقبة الحميدة ، والأم : أصل الشيء وما يجري مجراه كأم الرأس للدماغ وأم القرى لمكة .

### المعنى الجملي

سبق أن ذكر أنهم اقترحوا عليه الآيات استمراء به وطلبوا استعجال السيئة التي توعدهم بها، وكان صلى الله عليه وسلم يتمي وتوقع بعض ما توعدوا به ليكون زاجرا

نغيرهم ، ذكر هنا لرسوله أن وظيفته التبليغ ولا يهيمه ما سبواهم من الجزاء فعليتنا حسابهم ، وهل هم في شك من حصول ما توعدناهم به وهم يرون بلادهم تنقص من جوانبها بفتح المسلمين لها وقتل أهلها وأسبغهم وتشريدهم ، والله يحكم في خلقه كما يريد وقد حكم للمسلمين بالعز والإقبال ، وعلى أعدائهم بالانهيار والإذلال - ثم بين أن قومه ليسوا ببدع في الأمم فقد مكر من قبلهم بأنبيائهم ولم يكن مكرهم ليضيرهم شيئا فكانت العاقبة للمتقين ، وأهلك الله القوم الظالمين ، وسيعلم الكافرون حين يحل بهم العذاب ، لأن حسن العاقبة ؟ ثم ذكر إنكار اليهود لرسالته وأمره بالجواب عن ذلك بأن الله شهد له بأنه صادق فيها وأيده بالأدلة والحجج وفي شهادته غنى عن شهادة أى شاهد آخر ، وكذلك شهد من آمن من أهل الكتاب بأنهم يجدون وصفه في كتبهم .

## الإيضاح

(وإما ترينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) أى إن ترك أيها الرسول في حياتك بعض الذى نعد هؤلاء المشركين بالله من العقاب على كفرهم ، أو توفاك قبل أن ترينك ذلك ، فما عليك إلا تبليغ رسالة ربك لا طالب صلاحهم ولا فسادهم ، وعلينا محاسبتهم ومجازاتهم بأعمالهم إن خيرا نغير وإن شرا فشر ، ونحو الآية قوله تعالى : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ . فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ . إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ » .

(أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟) أى أشك أولئك المشركون من أهل مكة الذين يسألونك الآيات ، ولم يروا أنا نأتى الأرض فنفتحها لك أرضا بعد أرض ونلحقها بدار الإسلام ونذهب منها أهلها بالقتل والأسر والإجلاء ؟ أليس هذا مقدمة لما أوعدناهم بحصوله ، ونذيرا بما سيحل بهم من النكال والويل في الدنيا والآخرة لو تدبروا ، فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ .

ونحو الآية قوله : « أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ؟ » .

( والله يحكم لامعقب لحكمه ) أى والله يحكم وحكمه النافذ الذى لا يرد ، ولا يستطيع أحد أن يبطله وقد جرت سنته أن الأرض يستعمرها عباده الصالحون بالعدل فيها والسير على نهج المساواة وترك الظلم ، وقد حكم للمسلمين بالعز والإقبال على ما وضع من السنن العامة ، وعلى أعدائهم بالإدبار وركود ربحهم لما سلكوه من الظلم والفساد فى الأرض .

( وهو سريع الحساب ) فعما قريب سيحاسبهم فى الآخرة كفاء ما دنسوا به أنفسهم ووران على قلوبهم بارتكاب الآثام بعد أن يعذبهم فى الدنيا بالقتل والأسر ، فلا تستبطن عقابهم فإنه آت لا محالة ، وكل آت قريب .  
ثم بين أن قومه ليسوا يندع فى الأم فقد مكر كثير من قبائلهم بأنبيائهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر فقال :

( وقد مكر الذين من قبائلهم ) أى وقد مكر كثير من كفار الأم الماضية بأنبيائهم كما فعل تمرود إبراهيم وفرعون بموسى واليهود بعيسى ثم دارت الدائرة على الظالمين وأهلك الله المفسدين .

وفى هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتصبير بأن العاقبة لا محالة له .  
( فله المنكر جميعا ) أى إن مكر الماكرين لا يضر إلا بإذنه تعالى ولا يؤثر إلا بقدرته ، فيجب ألا يكون الخوف لإمانه تعالى .  
وفى هذا إيمان له صلى الله عليه وسلم من مكرهم .

( يعلم ما تكسب كل نفس ) فيعصم أولياءه ويعاقب الماكرين بهم ليوفى كل نفس جزاء ما أكسبت .

وفى هذا ما لا يخفى من شديد الوعيد والتهديد للكافرين الماكرين .

ثم أكد هذا التهديد بقوله : « أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ؟ » .

( وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ) أى وسيعلم الكفار إذا قدموا إلى ربهم يوم القيامة حين يدخل الرسول والمؤمنون الجنة ويدخلون النار ، لمن العاقبة الحمودة إذ ذاك وإن جهلوا ذلك من قبل ؟ .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أسقف من اليمن فقال له عليه السلام هل تجدنى فى الإنجيل رسولا؟ قال لا فأُنزل الله تعالى :

(ويقول الذين كفروا لست برسلا) أى ويقول الجاحدون لنبوتك ، الكافرون برسالتك ، لست رسولا من عند الله أرسلك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور وتدعوهم إلى عبادة إله واحد لا شريك له وتنقذهم من عبادة الأصنام والأوثان وتصلح حال المجتمع البشرى وتمنع عنه الظلم والفساد .

( قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ) أى قل حسبي الله شاهدا بتأييد رسالتى وصدق مقالتي إذ أنزل على هذا الكتاب الذى أعجز البشر قاطبة أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

( ومن عنده علم الكتاب ) وهم من أسلم من أهل الكتابين التوراة والإنجيل كعبد الله بن سلام وأضرابه فإنهم يشهدون بنعته فى كتابهم .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : كان من أهل الكتاب قوم يشهدون بالحق ويعرفونه ، منهم عبد الله بن سلام والجارود وتميم الدارى وسلمان الفارسي رضى الله عنهم .

### خلاصة لهذه السورة

ترى مما تقدم فى تفسير هذه السورة أنها اشتملت على الأمور الآتية :

(١) إقامة الأدلة على التوحيد بما يرى من خلق السموات والأرض والجبال والأنهار والزرع والنبات على اختلاف ألوانه وأشكاله ، وهذا تفصيل لما أجمله فى السورة

قبلها من قوله : « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » .

(٢) إثبات البعث ويوم القيامة ، والتنجيب من إنكارهم له .

(٣) استعجابهم العذاب من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبيان أنه واقع بهم لاحتماله كما وقع لمن قبلهم من الأمم الغابرة .

(٤) بيان أن للإنسان ملائكة تحفظه وتحرسه وتكتب عليه ما يكتبه من الحسنات والسيئات بأمر الله .

(٥) ضرب الأمثال لمن يعبد الله وحده ولمن يعبد الأصنام بالسبيل والزبد الرابى .

(٦) بيان حال المتقين الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب وأقاموا الصلاة وأنفقوا فى السر والعلن ، وبيان ما لهم يوم القيامة .

(٧) بيان حال الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويفسدون فى الأرض وبيان ما لهم .

(٨) إنكار الشركاء مع إقامة الأدلة على أن لا شريك لله .

(٩) وصف الجنة التى وعد بها المتقون وبيان أنها ما آل المتقين وما آل الكافرين النار وبئس القرار .

(١٠) بيان أن كثيرا ممن أساموا من أهل الكتاب يفرجون بما ينزل من القرآن إذ يرون فيه تصديقا لما بين أيديهم من الكتاب .

(١١) بيان مهمة الرسول وأن خلاصة ما جاء به - عبادة الله وحده ، وعدم الشرك به ، ودعاؤه لطلب النفع ودفع الضر وأن إليه المرجع والمآب .

(١٢) بيان أن كل رسول أرسل بلغة قومه ليسهل عليهم قبول دعوته وفهمها .

(١٣) تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته من قبول دعوة المشركين من بعد ما جاءهم من العلم .

(١٤) إن جميع الرسل صلوات الله عليهم كان لهم أزواج وذرية .

(١٥) إن المعجزات ليست بمشيئة الرسل يفعلونها كلما أرادوا ، وإنما هي بإذن الله وإرادته .

(١٦) بيان أن هذه الحياة الدنيا إنما هي محور وإثبات وموت وحياة فيزيل الله قوما ويوجد آخرين ، وكل ذلك محفوظ في علم الله الذي لا تغيير فيه ولا تبديل .

(١٧) إن مهمة الرسل إنما هي التبليغ ، أما الجزاء على مخالفة الأوامر فأمر ذلك إلى الله ولا يعنى الرسول أن يحصل في زمنه أو بعد وفاته .

(١٨) إن انتقام الله من المكذبين قد بدأ في حياة الرسول بقتل أعدائه وأسره وتشريدهم في البلاد .

(١٩) إن مكر أولئك الكافرين بالرسول ليس بيدع جديد ، فكثير من الأمم السابقة مكروا بأنبيائهم وكان النصر حليف المتقين ونكل الله بالقوم الظالمين .

(٢٠) إخفاف الكافرين في إنكار رسالته صلى الله عليه وسلم ، مع بيان أن الله شهيد على ذلك بما أقام من الأدلة على صدقه ، وكذلك شهادة من آمن من أهل الكتاب بوجود أمارات رسالته صلى الله عليه وسلم في كتبهم وتبشيرها بها .